
روايات مصرية للجيب
ما وراء الطبيعة
68
أسطورة
أرض الظلام
Looloo
www.dvd4arab.com
د. أحمد خالد توفيق

المقدمة

كما تعرفون ، هذه هى آخر قصة عندى من قصص الأخ (سالم) و(سلمى) اللذين جاءا من أرض أخرى تشبه أرضنا فى كل شىء وتزوجا ..

معًا قرأنا (أرض أخرى) و(أرض المغول) و(أرض العظايا) .. وهى رحلات عجيبة فى عالم بلا فراعنة .. وعالم سيطر فيه المغول على كل شىء .. وعالم انقرض فيه العرب تقريبًا ؛ لأنهم لم يتطوروا .. بالترتيب ..

اليوم أحكى لكم قصة أرض الظلام كما قصها (سالم) فى أوراقه ..

هل من قصص أخرى ؟ لا أعتقد .. إن (سالم) لم يظهر قط منذ ذلك الحين ولا أحسبه سيفعل .. إنها القصة الأخيرة فعلاً ، وأرجو أن تستحق ذلك ..

بالنسبة لى أنا بخير كما تعلمون .. مشاكل بسيطة جدًا تذكرنى بالنكتة القديمة عن العجوز الذى يقول لأقاربه : أنا بخير .. لا ينقصنى إلا الصحة والسعادة والمال !

مشاكل مع عدسة العين وضغط الدم والربو والمثانة والرنتين والشرايين التاجية وشرايين المخ .. هذه مشاكل معتادة على كل حال ولا تثير قلقى ..

من حين لآخر أقوم بجولة بسيطة فى شارعنا .. لكن هذا صار مخاطرة مع كل تلك الحفر التى لا تردم أبدًا .. هناك دومًا ماسورة مجار ما أو كابل كهرباء أو ماسورة ماء .. هناك دومًا شىء يتم إصلاحه أو استبداله ، وهذا يعنى أن تحطيم عنقى وارد فى أية لحظة ..

معنى المخاطرة بركوب السيارة أننى سأظل سجينًا فيها فى الزحام عدة ساعات .. أما سيارات الأجرة فسائقوها يعانون حالة مزمنة من السادية والاحتقار لمن يمشون على أقدامهم .. لقد ابتاعوا هذه السيارات من أجل متعتهم الخاصة وللنزهة ، ومن الوقاحة أن تشير لهم كأنهم سيارات أجرة ..

هكذا أقرر أن أعود لدارى من جديد ..

ابن البواب يبتاع لى ما أريد من الخضر ، أما البقالة فأطلب ما أريد بالهاتف .. أمّ (شخص ما) التى تقوم بتنظيف الشقة تطهو لى من حين لآخر ، لكنها تنسى شعر رأسها فى الحساء أحيانًا ..

لا أفعل شيئًا ذا قيمة إلى أن تأتوا لى كى تسمعوا قصصى ..

هنا فقط أستعيد مرحى وحيويتى ، وألتقى وعدًا بساعات من الاستمتاع ..

سأعد بعض الشيكولاته الساخنة وآتى لأجلس معكم ..

هكذا .. الآن نبدأ الكلام عن أرض الظلام ، وهى كما اعتدتم قصة لا دور لى فيها إلا بعض التصحيح اللغوى والتدخل فى النهاية برأى سخيف لا يفيد ..

هيا بنا ..

* * *

تمهيد

ها نحن ذان نرتاد الأبعاد والمسافات ..

ثقوب سود ومجرات .. سديم خلف سديم ..

متشابكى اليدين يرقص الفضاء من حولنا رقصته التى حيرت الشعراء والحالمين وعلماء الفيزياء ..

ظلام فى ظلام .. وظلام يلد نورًا .. ونور يستحيل ظلامًا ..

نحن طاقة .. لم يعد لنا وجود مادى ، وبرغم هذا أعتصر يدك فكيف ؟

أنت لى وأنا لك .. قوليها !

أنا لك وأنت لى .. هل رضيت ؟

لقد صرنا كيانًا واحدًا .. امتزجت ذراتنا .. وهذا الكيان تلاشى .. فلو لم نستعد ماديتنا قط فلربما كان هذا أفضل .. تمنت (أفروديت) أن تصير و(هرمز) كيانًا واحدًا .. وقد كان لها ما أرادت .. لقد جاء ذلك الكائن المدعو (هرمافروديت Hermaphrodite) .. لكنه كان مسخًا .. كان يجمع صفات الذكورة والأنوثة معًا ..

لكن كائننا نحن سيكون أجمل .. أعرف هذا ..

لقد فررنا من عالم العظايا .. (جمشيد) و(ستارسكى) و(إسماعيل خان) .. كل هذا العالم المتشابك المعقد قد فررنا منه بضغطة زر لنبدأ من جديد !

نبدأ من جديد !

الحلم الذى راودنى منذ نعومة أظفارى .. أن أبدأ كل شىء من جديد ..

كل الأخطاء والعثرات وزلات اللسان .. كلها لم يعد لها وجود ..

هناك فى موضع ما عالم أفضل وأروع من الذى تركناه ، وإننا لواجدوه ..

هل ترين ؟ هذه هى (الكواركات) .. أقزام خضر .. ثقوب سود .. كوكبة الدجاجة .. كوكبة القنطورس ..

ثم ثغرة هائلة فى الزمان والمكان .. ثغرة (زمكانية) إن شئت الدقة ..

سوف نعبرها ..

لا تخف .. لا تخافى ..

أنت معى ؟ أنا معك ..

فلتزأر العاصفة إذن ..

إننا نقترب يا صغيرتى ..

هل تشعر به ؟ هل تحسه ؟

لا أدرى عن أى شيء تتكلمين يا صغيرتى لكن مادمت تشعرين به فأنا مثلك ..

بالفعل أشعر به ..

إنه يقترب ..

ميلاد عصر جديد ..

فقط أغمضى عينيك ولسوف نرى ..

سوف نرى ..

* * *

الجزء الأول

أرض الظلام

أفكر أننا فى ممر الجرذان ..

حيث فقد الموتى عظامهم ..

أية ضوضاء هذه ؟

إنها الريح تحت الباب ..

« وما هذه الضوضاء الآن ؟ ماذا تفعل الريح ؟ »

لا شيء .. نعم لا شيء ..

« ألا ترى شيئًا ؟ ألا ترى شيئًا ؟

ألا تذكر شيئًا ؟ »

بلى أذكر .

هاتان لؤلؤتان ..

كانتا من قبل عينيه ..

« أحى أنت أم لست حيًا ؟ أليس فى جمجمتك شيء ؟ »

من قصيدة الأرض الخراب لـ (ت.س. إليوت)

ترجمة د. (لويس عوض)

1ـ هناك خطأ ما ..

عندما تم التجسُد كان ما رأيناه محبطًا كالعادة ..

لم يكن محبطًا .. بل كان مريعًا ..

كانت هناك غابة كثيفة من السراخس ، ومستنقع كريه الرائحة ..

السماء مدلهمة مشبعة بلون أحمر منذر بالويل ..

ثم راح شيء يُحلق حولنا .. نظرت بدقة فتبينت أنها حشرة أقرب إلى اليعاسيب .. لكنها ضخمة جدًا بحجم قطٍ مكتنز ..

قالت (سلمى) واسعة الثقافة :

ـ « هذه (ويتا) .. الحشرة التى تميز (نيوزيلندا) فى عالمى .. لكنها ليست بهذا الحجم .. »

تراجعنا مبتعدين عن هذا الكابوس الطائر .. فقط لنتورط أكثر فى المستنقع ..

فجأة دوى الزئير فارتجت قلوبنا بفعل الرعب وفعل تأثير (الدولبى) القوى .. ومن جهة أخرى جاء زئير أعلى ..

وكأنما نحن فى كابوس رأينا ذلك الوحش يرفع رأسه من بين الأشجار وهو يزأر .. ذات المشاهد التى رأيناها فى فيلم (حديقة العصر الجوراسى Jurassic park) لكنها حقيقية جدًا هذه المرة ..

الأرض ترتج ..

إن هذه هى (أرض العظايا) بالمعنى الحرفى للكلمة ..

إن هذا الوحش هو (العظاية الطاغية) أو (تيرانوسورس ركس) أما الوحش الآخر الذى يواجهه من الجهة الأخرى للمستنقع فهو .. (ستيجوساورس) .. ليس آكل لحم إن لم تخنى الذاكرة لكنه يدوس كأى شيء ثقيل آخر ..

هنا رأينا تلك الوحوش الشيطانية الأصغر حجمًا تتواثب من جانبى الأشجار .. الطيور المفترسة السريعة (فيلوسيرابتور) ..

قالت (سلمى) :

ـ « هل جئنا هنا كى نرى فيلم (حديقة العصر الجوراسى) على الطبيعة ؟ »

ـ « لابد أن هذا عالم لم تنقرض فيه الديناصورات .. »

ـ « أعتقد أن الرحيل صار واجبًا .. هـذا عـالم لـن يعلمنـا أى شىء ولسوف يتم التهامنا خلال دقائق .. »

قلت فى شىء من السخرية وأنا أمسك بيدها :

ـ « هل تغيرت ؟ كنت أعرف امرأة تصـر علـى أن تجرب كل عالم تراه حتى لو كان مليئًا بمرضى الطاعون .. »

ـ « لابد من بشر أولاً .. هذه نقطة البداية .. »

كانت تضغط على أزرار الجهاز :

ـ « 199ـ ب ـ ثم .. »

صحت فى جنون وأنـا أرى أحـد هـذه الوحـوش السـريعة الشرسة يثب علينا من أعلى كأنه شيطان :

ـ « ماذا تفعلين بالله عليك ؟ ربع ساعة كى ؟ »

ـ « صبرًا .. إن .. »

فى هذه اللحظة ارتطم ذيل السحلية المخيفة بنا فطرنا فى مياه المستنقع .. صحت فى رعب :

ـ « لا تدعى الجهاز يبتل ! لا يمكن أن نبقى هنا للأبد ! »

رفعـت يدهـا لأعلى فوق مستوى المـاء وراحـت تضغط على الـزر :

ـ « 18 . 18 .... »

صرخت فى هلع :

ـ « انتظرينى ! أنا لم أمسك بيدك بعد ! »

لا أريد أن ترحل وحدها لأجد أننـى وحـدى فـى هـذا العـالم .. معانـاة شنيعة لمدة خمس دقـائق إلـى أن يهضمنــى أحـد هـذه الكائنات لأسـهم فى عملية التطور .. لن أعيش أكثر من هذا بـأى حال .. كيف استطاعت الثدييات صغيرة الحجم أن تنجو من عـالم كهذا ؟ إنها لمعجزة فعلاً ..

تمسكت بساعدها بينما هى تضغط زر الإدخال ..

فى اللحظة التى وثب فيها ذات الوحش الذى أسقطنا فى المـاء .. وثب علينا وكان قادمًا بسرعة وحماس ..

يقترب .. يقترب ..

ثم تلاشى المستنقع من حولنا ..

وكانت هذه أقصر فترة نقضيها فى أى عالم منذ بدأنا الرحلة ..

* * *

كان العالم (199 ـ ب ـ 18) قاتمًا كما هى العادة ..

لم يكن المنظر بهيجًا عندما تم التجسُّد ..

بالواقع لم يكن هناك منظر على الإطلاق ..

لقد كان كل شىء أسود .. لا يوجد ضوء من أى نوع ..

قدرت أن هناك خطأ ما .. وأن التجربة صارت إلى فشل ..

قلت بصوت مبحوح :

ـ « (سلمى) .. أنا أصبت بالعمى ! »

قالت بذات الصوت :

ـ « لا .. نحن فى مكان مظلم .. هذا واضح .. »

سرنى هذا ، فلو أنها قالت إنها ترى بوضوح لمت هلعًا .. لكن هذا لم يحل المشكلة .. من الوارد دومًا أن يكون الانتقال قد أعمانا معًا ..

مددت يدى أتحسس العالم من حولى .. يجب أن ألمس شيئًا .. يجب أن تصطدم يدى بشىء .. مستحيل ألا يكون هناك سوى ظلمة تليها ظلمة ..

فجأة سمعت ذلك الصوت الخشن يصيح :

ـ « من أنتما ؟؟؟؟ (نصار) ! (نصار) !! »

ثم سمعت صوت رجل يتكلم بلهجة ريفية قليلاً :

ـ « أوامرك يا (محسن) باشا .. »

ـ « من هذان ؟ وكيف مرا ؟ ألم تسمع صوت الخطوات ؟ »

بدا لى الأمر مألوفًا .. لكن هذا الظلام الدامس ..

صوت (نصار) يقول :

ـ « معذرة يا باشا .. »

تكلمت (سلمى) باعتبارها الأكبر سنًا والأسرع بديهة :

ـ « نهارك حليب يا سيدى .. »

ـ « ماذا تقولين ؟ »

ـ « أعنى صباح الخير .. »

ـ « هل أنت مخبولة ؟ »

قلت أنا وقد بدا لى الأمر مألوفًا إلى درجة تثير الغيظ :

ـ « معذرة .. كنا نبحث عن موظف هنا و ... »

ـ « ليس هنا .. والآن اخرجا ! »

سمعت صوت (نصار) يهتف :

ـ « هذا الجهاز فى يد المرأة يا سيدى .. لا أعرف ما هو .. »

ـ « هاته ! والآن مع السلامة ! »

هكذا شعرت بيد غليظة تقتادنى فى الظلام .. لم أدر ما يحدث ولم أقدر على الاعتراض .. ثم شعرت بأننى أجتاز بابًا .. وسمعت صوت (سلمى) يهمس فى إرهاق :

ـ « هل تفهم أى شىء ؟ »

قلت لها :

ـ « غرفة رئيس المباحث ! هل نسيت ؟ بدأنا استعمال هذا الجهاز اللعين للهرب من مكتب رئيس المباحث فى كوكبى .. لقد حاصرنا بالأسئلة ففررنا من مكتبه .. ما حدث بعد ذلك هو أننا نجد نفسينا فى غرفة رئيس مباحث كل كوكب نبلغه .. »

ـ « يا سلام ! ولماذا لم يحدث هذا فى أرض العظايا ولا أرض المغول ؟ ذات مرة وجدنا أننا فى الصحراء ومرة أخرى وجدنا أننا فى نيويورك ! »

ـ « أعتقد أن هذا يتعلق بدوران الكوكب حول محوره أو شىء من هذا القبيل .. هذا الكوكب يدور بذات سرعة الأرض ـ أرضى أنا ـ أو هذا هو التفسير الوحيد الذى يخطر لى الآن .. »

قلت لها ، وأنا أتحسس الطريق :

ـ « لكن لا أفهم .. لماذا لا أرى ؟ لماذا لا يعلقون هم ويتصرفون كأنهم يرون كل شىء ؟ »

قالت فى قلق :

ـ « ثمة احتمال لا بأس به أننا أصبنا بالعمى فعلاً ! »

كدت أجن هلعًا .. كنت أعرف أن هذه التجارب الشيطانية القائمة على الارتحال عبر الأبعاد لابد أن يكون لها أثر قاتل .. تذكر فيلم (الذبابة) لـ (كروننبرج Cronenberg) حينما امتزجت جزيئات الرجل مع جزيئات الذبابة ليكونا كائنًا واحدًا جميلاً يقىء على الطعام قبل أن يأكله ..

ـ « وماذا نفعل ؟ هل نطلب العون ؟ »

ـ « انتظر قليلاً .. يجب أن نجد تفسيرًا .. »

كنا الآن نتحسس طريقنا عبر ممرات قسم الشرطة .. يدها فى يدى ويدى الأخرى على الجدار .. لابد أن هناك دائرة منهم تحيط بنا الآن كأنهم يشاهدون فقرة فى السيرك ..

اصطدمت بيد شخص مفرودة فتراجعت على الفور ..

هنا خطر لى خاطر رهيب ..

إنه يتحسس طريقه مثلى بالضبط .. وإلا فما السبب الذى يدعو المرء إلى فرد كفه أمامه ؟ ما معنى هذا ؟ هل نحن فى كوكب كفيف ؟

الشبيه الكونى بوادى العميان فى قصة (هـ . ج . ويلز) الشهيرة ؟ إذن لماذا أصبنا نحن بالعدوى ذاتها ؟ كان يجب أن نتمتع ببصرنا وبالتالى نصير ملوكًا ؟

همست لها وأنا أتوقع أن هناك من ينصت بإمعان :

ـ « أعتقد أنهم لا يرون مثلنا ! »

ـ « يا لها من فكرة ! تذكرنى بنكتة الزوجة الأمريكية التى تنصح زوجها بأن يكف عن احتساء الخمر لأنه صار مهزوزًا ! إن الكفيف يفترض أن العالم أصيب بكارثة جعلته مظلمًا .. هناك حل أسهل هو أننا فعلاً كفيفان كخفاشين .. »

ـ « والسبب ؟ »

ـ « لا أعرف .. »

كنا نتكلم ونحن نواصل تحسس طريقنا .. سوف نحتاج إلى دهر حتى نخرج من هنا .. لماذا لا يساعدنا واحد من هؤلاء ؟

صحت بصوت عال :

ـ « من فضلك ساعدنا .. نحن لا نرى .. »

لحظات ثم شعرت بيد قوية تطبق على معصمى مع صوت يقول :

ـ « لماذا ؟ هل هناك مشكلة فى السمع ؟ »

ـ « لم نكتسب بعد هذه الحدة السمعية .. إنها تأتى مع الوقت .. »

ـ « إلى أين ترغبان الذهاب ؟ »

ـ « نريد الخروج من هنا .. »

لم يتكلم هذا الشهم ، لكنه شرع يجذبنى وراءه وأنا أجذب (سلمى) .. أشعر بأننا نمشى فى ممر طويل مزدحم خانق الرائحة مزدحم بالأنفاس والعرق .. ثم نهبط درجات مهدمة خربة .. ثم ممر آخر .. أعرف هذه الرائحة (الحكومية) التى هى مزيج من الأثاث القديم والعرق والبنايات الخربة وأكوام الملفات والفئران ورائحة دورة مياه لم يتم إصلاحها منذ قرون ..

فجأة شممت رائحة الهواء الطلق .. إننا فى الخارج فعلاً ..

السواد فى كل مكان من حولى .. أشعر بأننى أختنق .. أريد ضوءًا .. ضوءًا واحدًا ..

قلت لـ (سلمى) :

ـ « نحن فى ورطة .. والألعن أننا لا نملك الجهاز .. إنه مع هذا الضابط .. ربما نعود ونتوسل إليه أو نقنعه بحيلة ما ، لكن لابد أولاً من أن نرى .. »

ـ « لا تأمل فى هذا .. »

ثم فكرت قليلاً ، وأضافت :

ـ « ربما كان علينا أن نجد مستشفى أو عيادة طبيب .. لابد أن هناك تفسيرًا لما أصابنا .. »

رحنا نتحسس طريقنا بعض الوقت مستندين إلى جدار رطب مهدم .. هذا ليس عدلاً .. لابد من فترة راحة ما بين العالمين .. لم أكن قط ممن يسافرون إلى بلد جديد فيضعون حقائبهم ثم يصيحون : هيا بنا نقم بجولة !

كلا .. لابد من أن أستريح قليلاً وأستجمع ذاتى .. لابد من فترة تصفو فيها أفكارى وأعرف من أنا .. لا تطالبنى بأن آتى من أرض العظايا لأجد نفسى فورًا فى هذا العالم أتحسس طريقى فى الشوارع ..

وهنا لاحظت شيئًا ..

ملت على (سلمى) هامسًا :

ـ « ألم تلحظى أننا لم نسمع أى محرك سيارة ؟ لم نسمع أى بوق ؟ هذا غير معتاد فى القاهرة ما لم تكن هذه قاهرة لم تعرف السيارة بعد ! »

* * *

2ـ فحص عيون ..

نتحسس طريقنا فى الشارع ..

سألت أحد المارة عن أقرب مستشفى ، فلم يتطوع بأن يقتادنا .. لم يعرض أى شىء .. فقط قال لى فى لهجة عملية :

ـ « هناك واحدة على بعد خمسين مترًا .. ثم يمين .. يسار فى يمين .. »

معلومات قيمة فعلاً ..

كان الأمل معدومًا فى أن نجد من يحل مشكلتنا هناك .. هل تصارح طبيب العيون بأنك كنت فى تجربة انتقال عن بعد ، وأن جزيئاتك تبخرت ثم تجمعت فى مكان ما ؟ وأن السبب فى فقدان البصر على الأرجح خطأ فى استعادة الشبكية ؟ طبعًا مستحيل ..

الأمل الوحيد الحقيقى بالنسبة لى هو أن يكون هذا عمى مؤقتًا .. ربما تعرضنا لإضاءة زائدة أو أشعة كونية ما أدت لهذا العمى المؤقت .. اعتدت فى طفولتى أن أنام عندما أكتشف خللاً

ما فى جسدى ، وكنت أفيق لأجده قد اختفى على الأرجح .. ليت هذا صحيح ..

ـ« المستشفى هنا ! المستشفى هنا ! »

يدوى الصوت عبر مكبرات الصوت ..

شىء غريب ! لو كنت أرى لتبادلت النظر مع (سلمى) .. لم أسمع قط عن مستشفى يتم النداء عليه فى مكبر الصوت كأنها طماطم فى سوق .. غريب هذا الحماس ..

لكن برغم هذا شعرت بامتنان شديد لصاحب هذه الفكرة .. بهذه الطريقة يمكننا أن ندنو .. لقد فقدنا أشياء كثيرة ليس من بينها حاسة تحديد اتجاه الصوت ..

ـ« المستشفى هنا ! المستشفى هنا ! »

هناك إفريز عال .. من الوارد جدًا أن ننزل من عليه لتطيرنا سيارة مسرعة برغم أننى لا أسمع صوت أى محرك .. لهذا طلبت من أحد المارة أن يساعدنا على الاقتراب من الصوت ..

قال فى دهشة :

ـ « يبدو أن سمعكما ليس على ما يرام .. »

ـ « نخشى السيارات المندفعة .. »

قال فى سخرية :

ـ « ليت الأمر كذلك .. »

نقترب من الصوت أكثر فأكثر ، حتى صار من الممكن أن نسمع صوت المتكلم من دون مكبر الصوت .. ثمة حقيقة فيزيائية لا أذكر تفسيرها تقضى بأن من يسمعون صوت المطرب خارجًا من المذياع يسمعونه أسرع ممن هم فى ذات القاعة معه .. أعتقد أن الأمر يتعلق بسرعة الموجات الكهرومغناطيسية وسرعة الصوت .. على كل حال نحن نسمع صوت المتكلم فى الميكروفون فيخيل لنا أن صدى صوته يسبقه ..

قلت لمن أتوهم أنه أمامى :

ـ « هل هذا هو مدخل المستشفى ؟ »

قال دون أن يبعد مكبر الصوت عن فمه :

ـ « نعم .. الاستقبال فى نهاية الممر .. »

ـ « هل تعرف أين قسم أمراض العين ؟ »

ـ « لا يوجد عندنا .. إن أمراض العين جزء من قسم الجراحة العامة ! »

هكذا دخلنا إلى ذلك الممر الطويل .. وفى نهايته كما بدا لنا سمعنا صوت ممرضة تسألنا عما نريد .. كانت تلوك قطعة من اللادن وترمقنا فى استمتاع .. صوتها يدل على أنها ترمقنا فى استمتاع ..

ـ « نحن مصابان بالعمى .. »

عادت تسألنا بلهجة روتينية :

ـ « آلام فى العين ؟ أورام ؟ »

ـ « لا نعرف .. فقط نريد أن يتم فحصنا .. »

كنت أسمع صوت طبيبة شابة تملى تشخيصها فى مكان ما :

ـ « كساح .. كساح .. هذه الحالة كذلك كساح .. التهاب رئوى .. »

ثم جاء صوت الممرضة الأولى :

ـ « هنا حالتان يا د. (هالة) .. يريدان من يفحصهما .. »

شممت رائحة عطرية نفاذة .. يد باردة لكن من الواضح أنها يد أنثى تتحسس وجهى .. تتسلق ملامحى ببطء حتى وصلت إلى عينى .. إنها تضغط .. تغرس أظفارها فى كرة عينى والجفنين .. ثم تضغط بقوة على المحجر بظفر الإبهام .. هذا مؤلم !

صحت محتجًا :

ـ « هذا مؤلم ! »

لكنها لم تعلق .. ويبدو أنها تركتنى لتتولى ذات الأمر مع (سلمى) .. سمعت (سلمى) تصيح فى ألم .. ثم سمعتها تقول :

ـ « لا مشاكل .. إنها تلك المشكلة المعتادة لمن يأبى التصديق .. أعطيهما بعض المسكنات .. »

صحت فى غيظ :

ـ « هل هذا فحص عيون ؟ لسنا بصدد تحسس بطيخة إن كانت ناضجة أم لا .. أقول لك إننا فقدنا البصر.. »

ـ « وأنا أقول لك إنكما بخير .. أنت لن تعلمنى مهنتى .. »

وسرعان ما توارت .. أعنى أن صوتها تلاشى ..

قالت (سلمى) وقد تسارع تنفسها كأنها موشكة على الإصابة بالهستيريا :

ـ « هذا لا يطاق .. نحن فى مأزق حقيقى .. مكفوفان فى عالم غريب لا يبالى بنا .. وهم مخابيل كذلك .. العالم الذى يفحص العين عن طريق تحسسها كأنها كبد أو طحال هو عالم مخبول .. »

قلت لها :

ـ « لاحظى أننا لم نعرف بعد نقطة الاختلاف عن عالمنا .. هل لأن هذا العالم بلا سيارات ؟ هل لأنهم مخابيل ؟ هل؟ »

كنت قد كونت استنتاجًا رهيبًا لكنى لم أصرح به لأحد .. حتى لنفسى ..

* * *

3ـ جائعان ..

من جديد نتحسس طريقنا فى الشارع ..

الآن أشعر بهذا التقلص المألوف فى معدتى .. إننى جائع ! لابد أن (سلمى) تشعر بالشىء ذاته .. آخر وجبة تناولناها كانت فى الصحراء مع (جمشيد) فى بعد آخر حول شمس أخرى .. فترة أطول من اللازم ..

سألتها فى قلق :

ـ « هل تعتقدين أننا فى الليل أم النهار ؟ »

ـ « أعتقد أننا فى الليل لم أشعر بأشعة الشمس الحارقة قط .. فى الواقع الطقس بارد فعلاً .. »

نعم .. البرد .. الإحساس الرئيس منذ جئنا هنا ..

ـ « والآن أنا جائع فماذا نأكل وكيف ؟ »

قالت وصوتها يبتسم :

ـ « أنت تعرف أننى أخفى بعض أوراق العملة معى فى كل مكان نقصده .. لدى عملات مصرية وعملات من كوكبى وعملات من أرض المغول .. سوف نجرب .. »

ـ « طبعًا سوف نصطدم ببائع يقول لنا إن هذه عملات مزيفة لا وجود لها .. »

ـ « كما يحدث فى كل كوكب نقصده .. لكن دعنا نجرب .. »

كنا الآن نشم رائحة طعام .. رائحة كبد محمرة أو لحم مشوى .. لا يهم .. لقد صرنا جائعين إلى حد أن تمييز الرائحة صار عسيرًا .. هذه رائحة طعام وكفى .. أى إننا ـ بلا فخر ـ تحولنا إلى ضبعين جائعين ..

وكأى ضبعين يحترمان نفسيهما ، مشينا وراء الرائحة .. فلم يبق إلا أن نبصبص بذيلينا ..

الرائحة تتزايد .. تتزايد ..

الآن هى أشد ما يكون .. هناك مروحة موجهة نحونا لا تكف عن ضخ هذه الرائحة الشهية .. الواقع أنها أقوى من اللازم حتى إننا وجدنا أننا غارقان فى الدخان .. سعلنا .. سعلنا حتى كدنا نبصق رئتينا ..

سمعت صوت من يقول بلهجة فظة :

ـ « كم شطيرة ؟ »

ـ « أربعًا .. »

ـ « خمسة جنيهات .. »

على الأقل هم هنا يتكلمون بلغة الجنيه .. وسعر خمسة جنيهات لأربع شطائر ليس بالسعر السيئ .. ربما كان هذا الكوكب يشبهنا فى هذه النقطة على الأقل ..

ومددت يدى المتعثرة بورقة مالية كبيرة الحجم .. استغرق البائع وقتًا أطول من اللازم حتى جذبها من يدى .. ثم سمعته يقول فى دهشة :

ـ « مائة جنيه ؟ ألا تجد معك بعض الفكّة ؟ »

ـ « نعم .. ليس معى غيرها .. »

ثم ملت على (سلمى) لأهمس :

ـ « هل كنت تحتفظين بمائة جنيه معك بين الأبعاد ؟ »

ـ « لا أعتقد أنه كان معى هذا المبلغ .. إنها تنويعات من العملات بين عشرة جنيهات وخمسة وجنيه .. »

ـ « إذن كيف اعتقد أنها مائة جنيه ؟ »

ـ « الاختلافات بين الكوكبين .. لعلهم يطلقون على عشرة الجنيهات اسم (مائة جنيه) هنا .. »

رائحة الطعام قوية جدًا جدًا .. أقوى رائحة شممتها فى حياتى ..

شعرت فى يدى بالرجل يدس العملات الورقية .. أوراق طوى بعضها بالطول وبعضها بالعرض وبعضها مثنى على طريقة (أذن الكلب Dog ear) الشهيرة ..

ـ « معك خمسة وتسعون جنيهًا .. »

ثم شعرت فى يدى بلفافة ساخنة واضح أنها دسمة .. ثقل مطمئن يعدك بساعات من الشبع ..

ابتعدت مع (سلمى) إلى أن اصطدمنا بجدار . هكذا جلسنا جواره فى بساطة كالمتسولين ، وفتحت اللفافة .. ناولتها شطيرتين ساخنتين وتحسست شطيرتى .. إن بها مزيجًا غريبًا من قطع اللحم .. لحم خشن ولحم ناعم .. لحم زلق ولحم قاس ..

هتفت (سلمى) فى دهشة :

ـ « ما هذا ؟ »

ـ « أعتقد أنه لحم رأس .. فى هذه الحالة تكون الشطيرة خليطًا من لحوم عدة .. »

فى تقزز هتفت :

ـ « أنا لا آكل هذه الأشياء ! »

ـ « سوف تحبينها .. أنا أحبها وبالتالى أعرف أنك ستحبينها .. تذكرى أننا لا نملك ترف التقزز .. فقط أرجو ألا يكون هذا الكوكب من أكلة لحم البشر .. »

ـ « الله يقرفك ! »

قضمت قضمة كبيرة ، ثم قلت بفم ملىء :

ـ « هل رأيت كيف يصنف النقود عن طريق ثنى أوراقها ؟ فى فيلم (المتهور daredevil) الذى كان سلسلة (كوميكس) أمريكية ناجحة ، كان البطل كفيفًا ؛ لذا كان يطوى العملات بهذه الطريقة ليعرفها بمجرد اللمس .. هكذا كان يميز المائة دولار من العشرة دولارات .. إلخ .. نفس الشىء يكرره الرجل هنا .. هل تعرفين لماذا أعتقد أننا أعطيناه مائة جنيه ؟ لأن الورقة كانت مفرودة .. هذه هى علامة المائة جنيه .. »

ـ « ماذا تعنى ؟ »

ـ « أعنى ما فهمته .. هذا البائع كفيف ! »

ـ « ولكن .. »

قلت فى استمتاع :

ـ « ليس هذا فحسب .. أكره أن أكون عبقريًا طيلة الوقت ، لكنها الحقيقة .. كل شىء يدل على أن هذا الكوكب يعج بالمكفوفين ! »

* * *

4 ـ أرض العميان ..

فى الساعة التالية رحنا نناقش أبعاد هذا الاستنتاج الرهيب ..

كانت القصة واضحة بالنسبة لى تمامًا ..

ـ « لماذا يمشى الناس وهم يمدون أيديهم أمامهم ؟ لماذا لا يتطوَّع أحد لمساعدة اثنين مكفوفين إذا كان الجميع مبصرين ؟ لماذا تنادى المستشفى معلنة عن نفسها ؟ لأن أحدًا لا يمكنه معرفة موضعها من غير صوت وهذا هو التدبير الوحيد الممكن ليعرف الجميع أين هى .. كيف يمكن فحص العيون فى مجتمع من المكفوفين ؟ لا مفر من تحسس العين بالأنامل .. بل ما أهمية هذا الفحص أصلاً ؟ »

قالت (سلمى) بصوت يدل على الذهول :

ـ « لهذا لم ينظر أحد بجدية لكلامنا عن العمى .. هنا تنحصر أمراض العيون فى الأورام والألم .. كل من قلنا له إننا لا نرى قال إننا مستجدان أو مصابان بالصمم .. لابد أن سمع هؤلاء القوم بلغ درجة عالية جدًا تتيح لهم الحركة بحرية .. »

قلت وأنا أسترجع شريط مغامرتنا :

ـ « بائع الشطائر لا سبيل ليعرف الناس مكانه إلا الرائحة .. لهذا غرقنا فى سحابة من الدخان ورائحة الطعام لأنه يعتمد على المراوح التى تنشر الرائحة .. »

ـ « ولهذا لا توجد سيارات .. كيف توجد سيارات أو طائرات فى عالم لا يرى ؟ هذه الأشياء لا توجد إلا فى السينما .. (آل باتشينو) يقود سيارته مسرعًا وهو كفيف ، و(عادل إمام) يفعل الشىء ذاته بطائرة ! »

ـ « وطريقة الأوراق المالية المطوية التى تتيح تعرفها .. »

ـ « كل شىء واضح .. »

ـ « لا .. ليس واضحًا .. ربما كان هذا عالمًا من العميان ، لكن كيف تفسر أننا أصبنا بالعدوى ؟ »

كان هذا هو السؤال المهم حقًا .. السؤال الذى يساوى ملايين الجنيهات .. الأعور فى بلاد العميان يصير ملكًا .. فلماذا لا نبصر نحن ؟

ـ « هناك احتمال وجود فيروس يسبب هذه الحالة .. »

ـ « لا توجد فيروسات تعمل بهذه السرعة .. لاحظ أننا وصلنا هنا ونحن لا نرى .. »

حقًا كان الأمر أقرب إلى لغز كبير ..

إننا فى عالم لا يرى .. عالم يعتمد على الصوت والرائحة واللمس .. ومن الواضح أن هؤلاء القوم بلغوا مكانة متقدمة فعلاً فى هذا الصدد .. من الواضح أن الحياة مستمرة بلا مشاكل ..

لكن ما زال اللغز قائمًا ..

* * *

قال لنا عابر السبيل وهو يضغط على يدى :

ـ « من هنا .. فندق صغير لكنه نظيف .. سوف تكلفكم الليلة خمسين جنيهًا .. »

ـ « لا بأس .. »

وشكرته بحرارة .. ثم جذبت (سلمى) ومضينا نشق طريقنا فى الاتجاه الذى أطلقنى نحوه .. أتعثر وأنهض .. فى عالم

العميان هذا كان من المفترض أن تكون شوارع القاهرة أكثر نعومة وأفضل رصفًا .. لكن الحفر والمطبات المعتادة كما هى ..

أمد يدى أمامى فأجد مدخلاً ..

أمشى متعثرًا .. فى نهاية الممر أصطدم بمنضدة .. لابد أن هذا موظف الاستقبال ..

طبعًا كنت قد ثنيت جنيهًا إلى نصفين متساويين .. هكذا ارتفعت قيمته بمعجزة ما لتصير خمسين جنيهًا .. هذا غش لا شك فيه ، لكننا مضطران أولاً ، ثانيًا أنا أغش كائنات فضائية فى مجرات أخرى ! لا يمكن أن يكون الحافز الأخلاقى ملتهبًا لهذا الحد !

قال لى الموظف ذو الصوت الغليظ :

ـ « لدى غرفة تناسبكما .. إنها مريحة ورائحتها طيبة .. »

طبعًا .. فى عالم كهذا لا يكون للجمال معنى .. الراحة والرائحة هما الأهم ..

ـ « لكنى أريد توقيعك ! »

ما معنى هذا ؟ ماذا يمكن أن يفعل بالتوقيع ؟

فهمت الأمر عندما شعرت به يمسك برأسى .. يلصق بأذنى شيئًا لزجًا باردًا .. ثم يقول :

ـ « شكرًا ! »

إنه قد أخذ طبعة من صوان أذنى على الصلصال .. طريقة لابأس بها .. طبعًا لا لزوم للبصمات هنا ؛ لذا أخذ طبعة مجسمة من أذنى وبالتالى يمكنه أن يتحسسها متى أراد ليعرف إن كنت أنا ..

الظلام .. الغرفة باردة بشدة .. أعرف من صوت الصدى أنها ثلاثة أمتار فى أربعة ..

تمشى (سلمى) فى الظلام إلى أن تلمس الباب فتغلقه .. لاتتعبى نفسك .. فلو كان أحدهم متواريًا فى الغرفة فقد حبسناه معنا !

تقول وهى تلهث :

ـ « أين الفراش ؟ سأموت إن لم أنم بضع ساعات .. »

قلت وأنا أخفف من ثيابي :

ـ « سيكون نومًا شنيعًا .. كيف يكون نوم لا تفيقين منه لترى النور ؟ ظلام في ظلام .. أن ينام المرء ويصحو فيجد الظلام ما زال مطبقًا على الكون .. هذا كابوس .. »

قالت وهي تتنهد بصوت عال :

ـ « سوف نصحو من نومنا لنجد أن الظلام ما زال مستمرًا .. هذا شنيع فعلاً لكننا سنعتاده .. »

وتحسست المكان حتى وجدت الفراش فرقدت عليه .. الحمد لله أن البرد شديد .. لو أضيف الحر لهذا لاختنقت فعلاً ..

(سلمى) ترقد على الفراش جواري فينن من ثقلها ..

تقول هامسة :

ـ « لا أصدق أننا فقدنا نعمة البصر بهذه البساطة .. »

ـ « أنا كذلك .. يخيل لي أننا سننام ونصحو لنجد أننا في ضوء النهار .. »

ـ « ليت الأمر كذلك .. »

ـ « كانت تذكرة المغادرة معنا لكن ذلك الضابط انتزعها .. »

ـ « سوف نستردها .. سوف نذهب إليه غدًا ونتوسل إليه .. سأقول له إن الجهاز مخصص لتنظيم ضربات القلب وإنني سأموت لو لم أسترده .. ذات الحيلة القديمة .. »

هنا دوى صوت يقول في الظلام :

ـ « هذا كل شيء يا سيدي ! هل ترغب في بعض التبغ لتمضغه ؟ »

وثبنا مترين في الهواء .. وحينما استعدت روعي صحت :

ـ « من .. من أنت ؟ »

جاء الصوت في الظلام :

ـ « أنا خادم الغرف يا سيدي .. كنت أنظف دورة المياه الملحقة !! »

كما توقعت من قبل .. يمكن أن يكون هناك ستة معنا في الغرفة ونحن لا نعرف !

صحت فى غلظة :

ـ « لا أريد أى شىء . والآن انصرف ! »

ونهضت أتحسس طريقى نحو الباب ومددت يدى أفتح المزلاج .. وبعد ثوان شعرت بذلك الجسد يعبر الفرجة خارجًا .. هذه المرة لم أغلق الباب إلا بعدما تأكدت من أنه لا يوجد آخرون .. ربما أجد الجيش الصينى فى الشرفة هذه المرة ..

عدت للفراش وتمددت عليه .. كانت (سلمى) تهتز من الضحك حتى تقطعت أنفاسها .. فقلت مغضبًا :

ـ « لا أرى ما يضحك فى هذا كله .. نحن من دون بصر هشّان تمامًا .. شديدا الضعف .. إنه العرى الحقيقى وليس عرى فقدان الثياب .. لأسباب تتعلق بالهشاشة لم يأكل (طه حسين) أمام أحد فى حياته قط ، ولم يغادر (أبو العلاء المعرى) داره .. »

قالت وهى تكتم ضحكاتها :

ـ « هل لاحظت ما قال ؟ هنا يمضغون التبغ ! »

ـ « وما فى ذلك ؟ كان لى جد يمضغ التبغ طيلة الوقت .. كل البحارة يفعلون ذلك .. لا أعنى أن جدى كان بحارًا .. »

ـ « لماذا لم نشم دخان لفافة تبغ منذ جئنا ؟ »

ـ « لأن هذا الكوكب يمضغ أهله التبغ .. هلاّ كففت عن التذاكى ونمت ؟ إننى مرهق بحق .. »

وكنت أتمنى أن أطفئ النور كطقس لا تنتهى الليلة من دونه .. لكن لا نور هنالك .. هذا يجعل الفارق بين الصحو والنوم باهتًا غير واضح ..

لكن للإرهاق قوانينه على كل حال ..

فقط وأنا أغادر عالم الأحياء إلى عالم الموت الأصغر سمعت (سلمى) تهمس مفكرة :

ـ « لا رائحة تبغ فى أى مكان .. »

* * *

5ـ فى الشرفة ..

صباح أسود ..

هكذا يمكن تلخيص الموقف ..

تفتح عينيك على ما أغمضتهما عليه .. واللون الأسود الكريه فى كل مكان ..

كانت (هيلين كيلر Keller) الكاتبة الأمريكية الصماء البكماء العمياء تقول ـ بعدما تعلمت النطق ـ إن أهم الحواس هى السمع .. السبب أننا فى الظلام نصاب بالهلع لو لم نسمع صوتًا مألوفًا ..

الآن أفهم هذه الكلمات ..

لو لم أسمع (سلمى) بجوارى تقول (نهارك حليب) لجننت ..

كيف عرفنا أن هذا نهار ؟ لا يوجد أى دليل .. فقط هى الساعة البيولوجية فينا تخبرنا بذلك .. وهى ساعة لا يمكن أن تثق بها على كل حال بعد كل هذا السفر .. جرب السفر إلى

أستراليا ثم تكلم عن دقة هذه الساعة .. إن ما يدعى (تأخير النفاثات Jet lag) يجعلك عاجزًا عن تقدير الوقت الصحيح تمامًا ، فما بالك برحلة بين المجرات ؟

فجأة سمعنا ذلك الدوى ، وارتجت الحجرة عدة مرات ..

* * *

صاحت فى ذعر :

ـ « ما هذا ؟ »

قلت وأنا أثب من الفراش :

ـ « أعتقد أنها الحرب .. هذا العالم يجتاز حربًا .. »

ـ « حرب بين عميان ؟ سيكون هذا مسليًا.. »

وهرعنا ملهوفين نتحسس طريقنا إلى ما شعرت بأنه الشرفة .. نعم هى شرفة .. هناك شيش ومزلاج مددت يدى أفتحهما .. وقلت لها فى توتر :

ـ « بعض الشرفات يكون لا وجود لها . لا تخطَى إلى الداخل فنحن لا نعرف أى شىء على الإطلاق .. »

هنا دوى الانفجار من جديد .. شعور كأن الحجارة ترتطم ببعضها فى أجواز السماء .. يمكن القول إنه رعد وإن كنت غير واثق ..

وقفنا معًا .. نشعر بالهواء البارد يضرب وجهينا .. لا نرى أى شىء آخر ..

نرفع رأسينا نحو ما اعتدنا أنه السماء ..

فجأة رأيته ..

ذلك اللسان الأبيض البراق يشق السماء السوداء .. يتحرك كأنه مخلب عملاق متجهًا إلى الأرض وفى هذه المرة رأيت القاهرة .. القاهرة تتوهج فى ضوء البرق .. الضوء الأزرق البارد المعتم يرسم ظلالاً طويلة على كل شىء .. مع ذلك التأثير (الستروبوسكوبى stroboscopic) المعروف .. عندما يتوهج الضوء لفترة قصيرة تبدو الأجسام المتحركة ساكنة ..

هذه هى القاهرة كما عرفتها وكما تراها من قمة (المقطم) .. البنايات .. المآذن .. الشوارع .. كل شىء كما هو ..

كنا نقف فى شرفة عادية جدًا تطل على شارع مزدحم ..

ومن جديد ساد الظلام ..

قلت لها همسًا :

ـ « إنه البرق فعلاً .. »

ـ « وهل نحن فى النهار أم الليل ؟ »

ـ « لا أعرف .. »

هنا جاء الدوى والارتطام .. البرق ثم الرعد كما تعلمنا منذ عرفنا كيف ننطق الكلمتين .. عد المسافة بين البرق والرعد لتعرف إن كانت العاصفة قادمة أم تبتعد .. لو ازداد العد فى كل مرة فالعاصفة تبتعد ..

من جديد هوى لسان آخر من ذات الموضع ليضرب ذات البقعة السابقة ..

هذا غير معقول ! هذا خطأ .. البرق لا يضرب ذات المكان مرتين أبدًا .. هذه قاعدة أخرى تعلمناها فى صغرنا ..

حتى على أرضنا تغير العالم كثيرًا جدًا .. كنا نرى البرق ونسمع الرعد ونرى قوس القزح فى طفولتنا كثيرًا .. أعتقد أننى لم أر هذه الظواهر منذ ثلاثين عامًا .. أعتقد أن الشباب لم يروا هذه الأشياء قط .. وماذا عن الهداهد ؟ الهداهد الجميلة التى كنت أراها فوق الأشجار فى طريقى للمدرسة ؟

لم تعد الطبيعة طبيعة كما كانت ..

لكن هذا البرق غريب الأطوار .. لقد رأيت بقعة من النار تتوهج فى آخر بقعة نزل فيها .. هذا حريق .. البرق الذى ينزل فى الموضع ذاته مرتين قادر على أن يحرق .. هذا منطقى ..

لكن النار خبت سريعًا .. لا أعرف السبب لكنى رأيتها تزول ..

ومن جديد ساد الظلام ..

همست (سلمى) فى انفعال :

ـ « لا أفهم ما رأيناه لكن هناك شيئًا واحدًا فائق الأهمية .. نحن لسنا مكفوفين ! »

فطنت للحقيقة فنظرت لها فى الظلام .. لا أراها ولا ترانى لكنها تعرف يقينًا أننى أنظر لها ..

قلت فى ذهول :

ـ « هذا حقيقى .. وهذا معناه .. »

ـ « معناه أن هذا عالم مبصر .. لكنه عالم بلا ضوء ! »

* * *

6ـ قبس ضوء ..

أعتقد أننا كنا الآن في لوبي الفندق .. لا أعرف بالضبط .. فقط هو مكان صاخب .. أرجو ألا يكون غرفتنا وقد دخلها 76 واحدًا ..

قلت لـ (سلمى) ونحن نتحسس طريقنا في الظلام :

ـ « لابد من شخص يجيب عن أسئلتنا .. إن الأسئلة كثيرة بحق .. »

ـ « لا تعتمد على هذا .. من تسأله سيعتبرنا مجنونين لا أكثر .. أن تسأل هنا عن الظلام كمن يسأل في عالمنا عن معنى كلمة (شمس).. »

ثم فكرت قليلاً وأضافت :

ـ « هل تعرف رأيي ؟ أعتقد أن هذا الكوكب لا يعرف النار كذلك .. تذكر ما قاله خادم الغرفة عن مضغ التبغ .. لماذا ؟ لأنهم لا يعرفون كيف يُدخن .. »

ـ « احتمال واه .. الشطائر التي أكلناها كانت ساخنة .. لو كنت تعرفين طريقة غير النار لتسخين الطعام فإنني أرجو أن تخبريني بها .. »

ـ « كذلك لا كهرباء .. »

ثم أضافت وقد تذكرت نقطة جديدة :

ـ « لا شمس .. لهذا كان دور الطبيبة في المستشفى يقتصر على فحص حالات الكساح .. لابد أن كل هؤلاء الأطفال الذين لم يروا الشمس قط قد تحولت عظامهم إلى مكرونة مسلوقة .. دعك من أن عالمًا بلا نور هو عالم غير محتاج إلى طب العيون أصلاً .. فقط عندما تصاب العين بالسرطان يغدو الطب ضرورة .. لهذا تم ضم أمراض العيون إلى تخصص الجراحة العامة .. »

كانت الاحتمالات تزداد قوة .. القصة تغدو منطقية ..

لكن كيف ؟ متى فقد هؤلاء النور ؟ هل من فجر التاريخ أم أن هذا حدث مؤخرًا ؟ هل هم متكيفون على الرؤية بشكل لا أعرفه ؟ ربما تبدل شيء في عيونهم وهذا يعني أن ملايين السنين مرت بهم في هذا الحال ..

لا أرى حلاً سوى أن نبحث عن قسم الشرطة ونحاول الحصول على جهازنا ..

هذا العالم لا يُطاق .. لا يُطاق إلى درجة أنه مخيف ..

مددت يدى أعبث فى جيبى شاردًا . هنا اصطدمت أناملى بشىء ما ..

* * *

كنت مع (جمشيد) فى ذلك الكهف الصحراوى .. أردت أن أسخن طعامى ، فقال وهو يدس فى يدى شيئًا :

- « استعمل هذه .. لقد سرقنا بعضها منهم .. »

كانت قداحة بلاستيكية صغيرة امتلأت حتى نصفها .. لكنها كانت مصدرًا عزيزًا للنار فى هذا العالم .. أشعلت بها الموقد ثم أعدتها له فقال باسمًا :

- « احتفظ بها .. نحن نسرق الكثير منها من جثث الجنود الغربيين الهالكين .. »

* * *

الآن كانت القداحة بين أناملى ..

معى قداحة يا (سلمى) .. شد ما أعتبرها كشفًا ثمينًا فى عالم الظلام هذا .. أريد أن أشعلها .. أريد أن أرى اللهب لحظة واحدة ..

أريد أن أتفحص هذه الوجوه لأرى من هى .. أعرف كيف يبدو هذا اللوبى وما هى أبعاده .. أريد لحظة واحدة ثم يعود الظلام ..

أريد أن أتأكد من أننى لست كفيفًا حقًا .. ربما كان وهج ذلك البرق قويًا إلى درجة أن المكفوف يراه .. لا أذكر أين قرأت قصة كهذه ، لكن يُقال إن ضوء بركان (فيزوف) كان من القوة بحيث بلغ شبكية العميان .. أعرف أن هذا هراء ، لكن لا أستطيع أن أمنع نفسى من التفكير فيه ..

مددت يدى إلى القداحة وداعبت الترس .. شليك .. شليك !

فى اللحظة التالية توهج الضوء ، ومن جديد تكررت الظاهرة الستروبوسكوبية إياها .. بدا لى كأن كل من رأيتهم تحولوا إلى تماثيل ..

(سلمى) تنظر للنور فى لهفة .. موظف الاستقبال يقف أمامه رجلان .. امرأة تجلس على أريكة وترضع طفلاً .. ثلاثة رجال يشربون الشاى .. الكل ينظر للهب فى ذهول ..

كان أهم ما لاحظته فى هذه الومضة السريعة أن هناك حالة عامة من اضطراب الثياب وعدم الهندمة .. الرجال منكوشو الشعر طويلو الذقون ، والمرأة ترضع الطفل بطريقة خالية من اللياقة فى مكان عام .. لوبى الفندق قذر جدًا ولا يمكن أن ترى مثله فى لوكاندات (الحسين) التى تتقاضى جنيهين فى الليلة ..

كل هذا منطقى .. عالم لا يبصر هو عالم لا يهتم البتة بمظهره .. أعتقد أنه عالم يهتم برائحته أكثر ..

طبعًا كانت قدرة القداحة على الإضاءة محدودة .. دائرة ضيقة جدًا من الوجوه .. لا أرى أبعد منها ..

الملاحظة الثانية هى أن النور آلمهم فعلاً ..

أنا نفسى شعرت بألم بالغ عندما لامس الضوء شبكيتى ..

ومن جديد ساد الظلام ..

هنا فقط بدأ الجحيم ..

سمعت من يصرخ :

ـ « اقبضوا عليهما ! »

ـ « متمردان ! »

ـ « كافران ! »

ـ « لقد لوثا الظلام ! »

* * *

7ـ الجريمة ..

كافران ؟ متمردان ؟ لوثا الظلام ؟

لم أعرف أننى ارتكبت كل هذه الجرائم بالجملة ، لكن أسماء التهم تدل على أن الأمر لن يقتصر على السجن .. منذ فجر التاريخ ومصير الزنادقة هو قطع الرقبة أو الحرق .. مصير المتمردين لا يختلف كثيرًا ولات حين مناص .. لا .. لن يكون هناك حرق ما دامت لا نار هنالك !

كنت قد أدركت فى هذه اللمحة السريعة مكان المدخل .. هكذا مددت يدى أعتصر ساعد (سلمى) وجريت فى ذلك الاتجاه .. كان هذا هو الوقت الذى شعرت فيه بمن يعتصرنى بين ذراعيه فى قوة .. لقد فررت إلى ذراعيه مباشرة كأننى أعشقه منذ دهور !

هكذا رفعت ركبتى وضربته فى أسفل بطنه ، فسمعت الهواء يخرج من فمه .. فى اللحظة المناسبة بالضبط لأن أحدهم أمسك بساعدى بقوة .. كل القوم هنا يمسكون بساعدك بطريقة تذكرك بالكلابات ..

لم يكن هناك وقت للمزاح ؛ لذا ضربته بجبهتى فى جبهته أعنف ضربة ممكنة جعلت مخى يرتج حيث سبح فى بحيرة السائل النخاع الشوكى .. لكن ككل ضربات (الروسية) هذه يتضرر المضروب أكثر من الضارب ولا أجد تفسيرًا فوريًا لهذه الظاهرة ..

ـ « أغلقوا الباب ! إنهما يحاولان الهرب ! »

كنت أخشى هذا ..

لكننا نتحرك بسرعة وأشم رائحة الهواء النقى .. إننا على الباب .. إننا اجتزناه فعلاً ..

فى هذه اللحظة انغلق الباب وراءنا ! لقد أغلقوه ليحبسونا بالداخل وهذه هى مزية التعامل مع عميان ..

هبطت و(سلمى) بضع درجات . بصعوبة أنقذت عنقى من أن يتحطم إذ تعثرت .. وفى النهاية وجدنا أننا فى الشارع ..

همست لها :

ـ « لن يطول الوقت .. سيخرجون للبحث عنا ، وهم أكفأ وأسرع .. يجب أن ننتظر جوار جدار ونكف عن الكلام .. »

ـ « والرائحة ؟ رائحتنا .. »

كانت رائحة طعام تهب علينا من مطعم ما ، وقدرت أنها قوية بما يكفى كى لا يشمنا أحد .. بعد كل شىء هم بشر وليسوا كلابًا بوليسية .. ما لم يكن الفص الشمى فى مخهم قد صار فى حجم قبضة يدى ..

هكذا جلسنا جوار جدار وضممتها على سبيل تقليل مساحة جسدينا ورحنا ننتظر ..

بالفعل نسمع صوت الخطوات ..

هناك من يصيح :

ـ « إنهما ليسا بالداخل .. »

واحد يسأل فى غلظة :

ـ « ماذا فعلا ؟ »

ـ « معهما نار وقد جرءوا على إشعالها ! لقد لوثا الظلام ! »

ـ « فلنخل مسئوليتنا .. يجب أن تبلغ الكهنة ! »

كانت هذه الكلمات غريبة عندما تقال بالعربية وبلهجة قاهرية .. لا يتلفظ بها أحد رجال الإزتك أو راهب بوذى .. هناك كهنة فى الموضوع ..

ـ « إن المسئولية خطيرة .. »

ـ « لذا يجب أن يتولى الأمر من هم أكثر حكمة .. »

ـ « ربما كانت الكلاب قادرة على العثور عليهما .. إن رائحتهما تملأ الغرفة .. »

ـ « معك حق .. »

يا للكارثة !

هناك كلاب بوليسية ورائحتنا تملأ الغرفة ! ما الذى فعلناه بالضبط ؟

عندما ابتعدت الأصوات أشرت لـ (سلمى) كى ننهض ونبتعد .. يجب أن نبتعد قدر الإمكان ثم نجد طريقة للفرار من تلك الكلاب الموعودة ..

نشم رائحة الطعام .. رائحة لحم محمر أو مشوى .. صحيح كيف يحصلون عليه من دون نار ؟

وقفنا أمام دخان طيب الرائحة كالذى شممناه أمس .. بالفعل تحول الأمر إلى سحابة كثيفة تحيط بنا .. صوت أشخاص يروحون ويجيئون فى الظلام ..

همست (سلمى) :

ـ « ألا يأكلون إلا اللحوم ؟ أين يمكن للمرء أن يأكل بعض الفول ؟ »

قلت لها :

ـ « لاحظى أن هذا كوكب بلا نور .. أى إنه لا نباتات هنا .. لابد أنهم يعتمدون على البروتين الحيوانى اعتماداً كاملاً .. »

ـ « وماذا تأكله الحيوانات ؟ »

حقًا كان هذا سؤالاً غامضًا .. من دون نباتات لن تدوم الحياة إلا بضعة أشهر إلى أن يتم التهام الثروة الحيوانية الباقية .. بعدها .. لا طعام .. خطر لى خاطر مخيف استعذت بالله منه .. هذا العالم لا يأكل أهله بعضهم البعض .. لا يمكن أن تكون الأمور بهذا السوء ..

وما معنى أننا لوثنا الظلام ؟ من الواضح أنهم يعتبرون الظلام كيانًا مقدسًا .. من هم هؤلاء الكهنة ؟ الحقيقة أن كل دقيقة لنا هنا تشعرنى بأن هذا الكوكب غير رحب على الإطلاق ..

قلت لها :

ـ « بينى وبينك .. لقد بدأت أعتقد بما كان يقوله الفلاسفة إن عالمنا هو أفضل العوالم المحتملة .. لقد رأينا أرضًا انقرض فيها العرب وأرضًا سيطر عليها المغول وها هى ذى أرض بلا شمس .. من الواضح أننا كنا فى جنة أرضية ولم ندرك هذا .. »

قالت كالحالمة :

ـ « صبرًا .. هناك عالم رائع فى مكان ما .. المشكلة هى أن أخطاءنا لا تصحح .. لا نستطيع العودة لعالمى أو عالمك .. أنت تعرف أن الجهاز لا يكرر ذات العالم مرتين .. الباب الذى نتركه صار محرمًا علينا .. »

ثم أردفت :

- « المشكلة هى أن هذا العالم مقضى عليه بالهلاك .. عالم بلا شمس هو عالم منته .. لكن إلى أى حد ؟ هل تأقلم هؤلاء القوم وكيف ؟ »

قلت فى قلق :

- « هل تعتقدين حقًا أنه عالم بلا شمس ؟ إذن لكان الجليد يكسو كل شىء .. كنا سنكون أقرب إلى كوكب (بلوتو) .. مجرد صحراء جليدية بلا حياة .. بينما نحن لا نعانى إلا بعض البرد الذى يذكرنى بالأيام الباردة فى شهر (طوبة) فى عالمى .. ليست هذه هى فكرتى عن انعدام الشمس .. قد يكون هذا عالمًا بلا نور لكنه بالتأكيد ليس عالمًا بلا شمس .. »

الحقيقة أن الألغاز تزداد كثافة .. فى مكان ما توجد الإجابة لكن أين ؟ وما هى ؟

* * *

8 - الكلاب ..

كان بائع الصحف ينادى بصوت عال على بضاعته :

- « اقرأ الأخبار .. آخر تصريحات القومندان .. إعدام خمسة من النورانيين ! »

فى عالمى هناك مدارس صوفية تحمل ذات الاسم ، كما أن هناك منظمة سرية شريرة ذات طابع يهودى هى (النورانية) ، يقال إن إبليس شخصيًا يرأسها ، وهى موضوع مفضل لكتب المؤامرات على غرار (الإمبراطورية الخفية) و(أحجار على رقعة الشطرنج) .. إلخ .. لكن لا أعتقد أن لها علاقة بما يتكلم عنه هذا الرجل ..

لكن ما معنى أنه يطالب الناس بالقراءة ؟

دنوت من مصدر الصوت .. ومددت يدى أتحسس .. بالفعل كانت هناك صحف ، لكن ورقها سميك أقرب إلى الورق المقوّى ، وكانت على الورق صفوف من ثقوب وبروزات تتحسسها أناملى .. من الواضح أن لغة (برايل Braille) هى

طريقة الكتابة السائدة هنا ، ومعنى هذا أن عدد قارئى الصحف أقل بكثير من عالمنا ..

معنى هذا كذلك أننا سنكون أميين فى هذا العالم ..

من هو القومندان ؟ وماذا يفعل ؟

قالت لى (سلمى) وقد فهمت بذكائها الحاد ما وجدت :

ـ « طريقة (برايل) .. أليس كذلك ؟ »

ـ « بلى .. لا توجد طريقة أخرى .. أعتقد أن هناك خدمات إذاعية كذلك .. »

كنت أدرك حقيقة أن هناك جوًا بوليسيًا مرهقًا فى هذا الكوكب .. الناس غير ودودين على الإطلاق وهذا يزيد من تعقيد عملية الفهم .. ليس بوسعك أن تدنو من أحدهم لتسأله عن القومندان وهذه النورانية ..

فجأة سمعنا البائع يتكلم ومن الواضح أنه يكلمنا نحن :

ـ « اسمعا .. لو كنتما المقصودين فلتفرا حالاً ! »

سألته فى رعب :

ـ « المقصودان بماذا ؟ »

قال نافد الصبر :

ـ « لا داعى للتذاكى .. أنتما تعرفان ما أتكلم عنه .. إن سيارة الشرطة قادمة .. أسمعها بوضوح .. لن تكون لديكما أية فرصة للنجاة ! »

سيارة شرطة ؟

قالت (سلمى) وهى تجرنى من ذراعى :

ـ « هذا معقول .. الشرطة اختصت نفسها بمزية الرؤية .. هذا يجعل المطاردين معدومى الحيلة تمامًا .. لابد أنهم يستعملون الأشعة تحت الحمراء أو شيئًا من هذا القبيل ، وبالتالى يتمكنون من القيادة فى شوارع المدينة .. دعنا نفر من هنا ! »

قال بائع الصحف :

ـ « هذا هو العقل بعينه .. الشرطة تستعمل طريقة التصوير الحرارى للرؤية .. لاحظا أن الكلاب قادمة كذلك ! »

قلت فى جزع :

- « وماذا نعمل بصدد هذا ؟ »

- « هذه مشكلتكما .. لكن لو كنت مكانك لبدلت ثيابى بثياب قديمة كريهة الرائحة ! »

وشعرت بشىء يلامس يدى .. إنها ثياب قديمة متسخة .. لا أعرف لماذا يحتفظ بها ، لكن هذا الرجل خدوم فعلاً .. من الصعب أن تلقى من يقدم لك خدمات فى هذا العالم .. الجميع خشن فظ أو – على الأقل – بارد لا مبال ..

الآن أسمع صوت السرينة .. بالفعل هناك سيارة شرطة قادمة .. والسبب الذى جعله يسمعها ولم نسمعها نحن هو أن حواس هؤلاء القوم صارت مرهفة مشحوذة كالسكين .. هاتان أذنا قط ..

يمكننى الآن أن أسمع نباح الكلاب ..

سوف يستغرقون دقائق إلى أن يصلوا إلى الفندق فتصعد الكلاب إلى غرفتنا لتنهل من رائحتنا ثم تنطلق فى الشوارع ..

صحت فى (سلمى) :

- « انزعى ثيابك مثلى ! »

وبدأت أتجرد من الثياب فيما عدا ما هو ضرورى منها .. ولم أبال بمكان ترك ثيابى . لقد صارت لعنة يجب التخفف منها سريعًا ..

صاحت محتجة :

- « منذ متى أتجرد من ثيابى فى الشارع ؟ »

- « منذ صرنا فى عالم لا يرى أى شىء .. أنت فى أمان كأنك فى غرفة موصدة .. إن الثياب الجديدة ليس الغرض منها ستر جسدك بل ستر رائحتك ! »

وبدلنا ثيابنا بما استطعنا من تلك الثياب العتيقة كريهة الرائحة .. لابد أن صاحب هذه الثياب السابق كان يعمل فى المجارى .. لكن الأمان أهم من النظافة حاليًا .. يسهل العثور علينا لو كانت هذه الكلاب مدربة على البحث عن أخبث رائحة فى الكون ..

قالت (سلمى) فى اشمئزاز :

- « ماذا عن الحشرات ؟ »

- « أعتقد أن هناك الكثير منها .. الشمس لا تؤدى دورها كمطهر فى هذا العالم ! »

ـ « يا للكارثة ! »

سوف نجرى .. لا أدرى لأين لكننا سنبتعد والسلام ..

ما هى تهمتنا ؟ إشعال قداحة طبعًا ! وإنها لأغرب تهمة سمعتها فى حياتى .. فى (رومانيا) قديمًا كان يمكن أن تُسجن لأنك أشعلت لفافتى تبغ بذات عود الثقاب، والسبب هو أن الشركات التى تحتكر الثقاب كانت تريد الحفاظ على مكاسبها، لكن يظل هذا أقل غرابة من جريمة إشعال القداحة هذه ..

أين نذهب ؟

إن الأمر معقد بما يكفى لو كنت مبصرًا .. فماذا عنك كفيفًا ؟

هنا سمعت بائع الصحف الشهم يصيح :

ـ « لحظة .. نسيتما شيئًا مهمًا .. »

وشعرت بالماء يسيل ليغرق ثيابى .. ويبدو أن (سلمى) تلقت بللاً مماثلاً لأنها شهقت .. إن الطقس بارد بما يكفى ..

ثم فهمت .. ما دام رجال الشرطة يستعملون المجسات الحرارية للرؤية فمن المفيد أن تكون باردًا كالموتى ..

قلت للرجل همسًا :

ـ « ألف شكر .. أنت رجل شهم .. »

المشكلة هى أنك لا تعرف كم واحدًا يحيط بك حقًا .. ربما كان هناك عشرة من حولنا فى هذه اللحظة ..

هكذا انطلقنا نركض .. لا أدرى لأين لكننا نركض والسلام ..

وسمعنا من بعيد صوت كلاب تنبح .. لقد صدقت النبوءات حرفيًا ..

كلاب عمياء طبعًا لكن منذ متى تحتاج الكلاب إلى رؤية واضحة ؟

* * *

9- المتحف.. لولو مسرى الريڤيرى

نركض فى الشارع غير واثقين أصلاً من أنه شارع ..

لكنك تشم رائحة الطعام فى المطاعم ، وتسمع النداء عبر مكبرات الصوت يدل الناس على مواضع المستشفيات والهيئات الحكومية .. جو غريب فعلاً ..

ـ « هيئة التأمين ! هيئة التأمين ! المعاشات ! المعاشات ! حجز تذاكر الطيران ! فندق .. فندق ! »

كنا نجرى بلا توقف ، وإن هتفت (سلمى) بأنفاس متقطعة :

ـ « تذاكر طيران فى عالم لا يرى ؟ »

قلت وأنا ألهث :

ـ « أعتقد أن الأمر يعتمد على الكمبيوتر الملاحى إلى حد كبير .. لابد أنهم يقومون بضبط الإحداثيات ويتركون الأمر للملاح الآلى .. »

لم أمقت فى حياتى شيئاً مثل الكلام أثناء المشى أو الركض .. أشعر وقتها بأننى موشك على الإصابة بنوبة قلبية ..

ـ « المتحف المصرى ! تعالوا لتتحسسوا كنوز الفراعنة ! »

حتى هذا يتم تحسسه !

معنى هذا أننا فى ميدان تحرير قاهرة هذا الكوكب .. للمرة الأولى نعرف أين نحن ..

عبرنا الشارع دون قلق .. فلا توجد أية مركبة .. لا أصوات ولا ضوضاء ..

فجأة فكرنا فى الشىء ذاته معًا .. زيارة للمتحف المصرى فى هذه الظروف .. على الأقل لن تدخل الكلاب وراءنا .. لن يكون هذا أغرب مكان للاختباء .. لقد فررنا ذات مرة من المغول إلى السينما ، واتضح أنها ألعن مكان يمكن تصوره ..

لا أعرف كيف ولا متى وجدنا أننا نمشى فى ممر طويل وأن هناك من يمرر أجهزة كشف معادن على جسدينا ..

سمعت صوتًا يتأفف :

ـ « ما هذا ؟ ألا تستحم ؟ »

صحيح .. يبدو الأمر غريبًا بعض الشىء أن يهتم شخص لا يلبس إلا هذه الأسمال المتسخة بزيارة المتحف المصرى ،

لكنى تجاهلت ما قاله .. ودفعت ثمن التذكرتين حسب القواعد الجديدة .. الحقيقة أننا نمارس الغش بلا انقطاع .. أعتقد أننى صرفت ثلاثة جنيهات لا أكثر وجدت طريقها إلى الإنفاق على أنها ثلاثمائة جنيه .. طيلة الوقت أتقاضى باقى مالى بالأوراق المطوية فمن أدرانى أنها كذلك ؟

كيف لا يُخدع الناس بهذه الطريقة ؟

هناك احتمالان .. احتمال أن الجميع فى الهواء سواء لذا لا يوجد احتمال للغش .. الكل يتعاطف مع بعضه والأمانة جزء مهم من كيانك .. الاحتمال الثانى هو وجود نوع من (توازن الغش) .. أنت تغش الناس وهم يغشونك .. هكذا تبقى الثروة موزعة بنسب ثابتة .. فى الغرب القديم كان الفارس يترك حصانه فى الحانة ويختار حصانًا أكثر لياقة ، وكان هناك من يأخذ حصانه .. هكذا يبقى توازن الخيول ثابتًا ..

الآن نجتاز مدخل المتحف المصرى .. للمرة الأولى نراه من دون ضوء ..

صوت مرشدة حسناء .. كيف عرفت أنها حسناء ؟ لا يوجد تفسير آخر .. نفس ما أوقع (طه حسين) فى غرام (مى) ، برغم أن الصوت يخدع كثيرًا .. لكن الأذن تعشق قبل العين أحيانًا ..

المرشدة الحسناء تقول لنا :

ـ « لو مددتم أيديكم إلى اليمين لشعرتم بملامح تمثال (أمنوفيس الرابع) .. الوجه الطويل الحزين .. هذه هى الملامح التى تمثل فترة العمارنة .. إن الاسم الذى نعرفه لهذا الفرعون هو .. (أخناتون) .. »

هذه التماثيل كانت معروضة بعيدًا عن أعين المشاهدين .. لكنها الآن قد وضعت على الأرض لتكون متاحة لمن يريد أن يتحسسها ..

أتلمس ملامح الوجه فتصطدم يدى بيد أخرى لا أعرف إن كانت يد (سلمى) أم لا .. فقط أسمع من تقول وهى تسحب يدها :

ـ « انتشولدجن زى .. »

سائحة ألمانية كما هو واضح .. جاءت من بلدها لا لترى آثارنا لكن لتتحسسها ..

بحثت بيدى حتى لمست يد (سلمى) .. يسهل أن أجدها بفضل رائحتها الكريهة .. نحن بحاجة إلى حمام لكن متى وأين ؟ وهل نكون فى أمان وقتها ؟

ـ « هنا تجدون تمثالاً يظهر الجسد شبه الأنثوى لهذا الفرعون ، حتى اعتقد العلماء أنه مصاب باختلال هرمونى ما ... »

أمسكُ بيد (سلمى) ونقف فى ركن المكان .. الصوت يضعف ويضعف .. الخطوات تبتعد .. واضح أن المجموعة تبتعد عنا ..

قالت لى فى الظلام :

ـ « لا أستطيع تخيل قاعة العرض هذه .. كيف وضعوا هذه التماثيل العملاقة هنا فى متناول اللمس ؟ إننى أذكر قاعة العمارنة هذه وأعرف موضع كل تمثال فيها .. »

ـ « وأنا كذلك .. »

همست فى إغراء :

ـ « ما رأيك فى مرة واحدة .. تشعل القداحة لربع ثانية لنرى المكان ثم تنتهى كأن شيئًا لم يكن ؟ »

همست فى رعب :

ـ « لقد فعلتها مرة واحدة وها نحن ذان ندفع الثمن بلا توقف .. »

ـ « من الواضح أنه لا أحد هنا .. »

ـ « وكاميرات المراقبة ؟ »

ـ « هل تمزح ؟ كاميرات مراقبة فى بلد عميان ؟ أعتقد أنهم يكتفون بأجهزة تنصت مرهفة .. »

هنا فعلت التصرف الوحيد المنطقى .. رفعت صوتى عاليًا :

ـ « لو سمحت يا آنسة !. »

لا رد .. فعدت أكرر الأمر :

ـ « لو سمحت يا آنسة ! »

سألتنى (سلمى) :

ـ « هل جننت ؟ »

- « لا . فقط أتيقن من أنه لا أحد معنا فعلاً .. »

ثم مددت يدى إلى القداحة ورفعتها عاليًا .. بالفعل أتحرق شوقًا لرؤية الضوء .. زميل العمل القديم الذى لم أعد أراه ..

تشاك ! انبثقت الشعلة .. باعثة نشوة لا توصف فينا .. نشوة ربما لم يشعر بها إلا القدامى حينما تمكنوا لأول مرة من اقتناص هذه الزهرة الحارقة المراوغة ..

لكن ما رأيته كان غريبًا ..

* * *

10 ـ الضوئى ..

لم أر تماثيل (أخناتون) و(نفرتيتى) كما توقعت ..

لقد كانت هذه التماثيل التى كنا نتحسسها عبارة عن كتل تم صبها بالأسمنت وتم طلاؤها بمادة براقة ما .. لقد تم الصب بعناية لتعطى ذات الانطباع .. هناك تجاويف وحفر حيث تحسسنا بحثًا عن وجه .. هناك التفاف حيث قيل لنا إنه جسد (أخناتون) ذو الطابع الأنثوى .. هناك ما يشبه النقوش ..

لقد كانت خدعة كبرى .. وهذه السائحة الألمانية جاءت من بلادها كى تتحسس كتلاً أسمنتية !

تذكرت قصة العميان الأشهر ، عن العميان الذين تحسسوا فيلاً فقال أحدهم إن الفيل يشبه المروحة ، وقال آخر إن الفيل خرطوم لين ، وقال واحد إن الفيل أربعة أعمدة غلاظ .. كل واحد كان يصف ما لمسته يداه .. بينما المبصر يرى كل شىء ويدرك أن كل هذه أجزاء من فيل ..

لكن من فعل هذا ؟ هل سرقت هذه الآثار ؟ هل إدارة المتحف تعرف ؟ هل أرادت أن تحمى الآثار الثمينة بهذه الطريقة ؟ المهم أن السائح أو الزائر يلمس بأنامله ما وصفته المرشدة.

لم يكن الوقت كافيًا لمزيد من الفهم ..

هذا الضوء يفضحنا ويكشف أمرنا ..

لقد استغرق الأمر جزءًا من دقيقة ، لكن كان هذا كافيًا .. وقد عرفنا كذلك أن القاعة خالية كما تمنيت ..

خالية ؟ ليس تمامًا ..

كان ذلك الرجل يقف هناك فى ركن القاعة جوار المدخل وقد وضع يده أمام وجهه ليتقى الضوء ..

عندما خفض يده أدركت أنه يضع عوينات غريبة الشكل على رأسه تجعله أقرب لصورة لرأس النملة كما تراها بالمجهر الإلكترونى .. ليست عوينات بل هى أقرب إلى عدسات النظارات التى تطل على العالم خارج رأسه على الجانبين .. وهى تتصل بمجموعة معقدة من الأسلاك ومثبتة بخوذة إلى رأسه .. صورة قديمة رأيتها مرارًا فى اللقطات الإخبارية من مواقع الحروب ..

جهاز رؤية ليلية ..

عندما عاد الظلام كنت أفكر .. هل غياب الشمس يسمح بوجود الأشعة تحت الحمراء ؟ لا أعتقد .إذن من أين تستمد هذه العدسات الشعاع الذى ترى به ؟

لقد رأى كل شىء لا جدال فى هذا ..

هنا يأتى السؤال الأهم : من هو ؟

هل كان يراقبنا منذ البداية ؟

ارتجفت وسمعت (سلمى) تشهق فى رعب ..

هنا جاء صوت الرجل عاليًا فى الظلام يقول :

ـ « أرى أن المتحف راق لكما .. لكن أرى أن ننصرف لتناول الغداء يا (كامل) .. »

كدت أحتج بأن اسمى ليس (كامل) ، لكن (سلمى) اعتصرت ذراعى بقوة .. الرجل لا يكلمنا ولكن يكلم أجهزة التنصت الحساسة التى توقعنا وجودها ..

إنه يرسل رسالة لطرف آخر يصيخ السمع ..

وسمعته يهمس قرب أذنى :

ـ « لا تكن غبيًا ! اتبعنى فى هدوء ! »

وفى الظلام شعرت بيده تمسك بمعصمى .. ومشينا وراءه بلا مقاومة .. مشينا فى رواق طويل والأفكار تصطرع فى ذهنينا ..

أخيرًا شممنا رائحة الهواء البارد .. نحن فى الخارج فعلاً ..

سمعته يهمس :

ـ « أنتما فى ورطة مخيفة .. »

ـ « منذ متى لم نكن ؟ »

ـ « أنصحكما بأن تبقيا معى .. لا أمل لكما فى النجاة غير هذا .. »

ـ « من أنت ؟ »

قال بنبرة عملية :

ـ « هذه قصة تطول .. فقط يجب أن تنجوا أولاً .. بعد هذا نتكلم .. إننى أراقبكما منذ فترة لا بأس بها .. فرصتكما فى النجاة واهية جدًا لأن الشرطة تملك وسائل رؤية ليلية ، بينما أنتما لا تملكانها .. تصور فرصة كفيف فى النجاة بين مبصرين .. هذا هو وضعكما .. »

ـ « لكن المجسات الحرارية والكلاب .... »

قال مقاطعًا :

ـ « ليس هذا كل شىء .. لاحظا أننى ألبس جهازًا لا يعتمد على هذه التقنيات .. لقد حصلت عليه بالوراثة ... من رجل شرطة اضطررت لضربه .. عندما تصير المبصر الوحيد وسط العميان تعرف أشياء مروعة بحق .. وهذه المعرفة باهظة الثمن .. إنها تساوى حياتك نفسها .. »

كنا نمشى معه كطفلين وهو يقتادنا عبر طرقات لا نهاية لها ..

بعد نصف ساعة شعرنا بأننا فى مكان مغلق ..

سمعنا الباب يوصد .. ثم قال لنا وهو يلهث :

ـ « مرحبًا بكما فى بيت ضوئى من الضوئيين أو النورانيين فى تعبير آخر ! »

* * *

الجزء الثانى

ذكرى الأضواء

هنا لا توجد مياه وإنما يوجد صخر فقط ..
صخر ولا مياه والطريق الرملى ..
الطريق المتعرج فى الأعالى بين الجبال ..
وهى جبال من صخر بلا ماء..
ولو كانت هناك مياه لتوقفنا وشربنا ..
بين الصخور التوقف محال والفكر محال .
والعرق جاف والأقدام تغوص فى الرمال ..
ليت بين الصخور مياهًا !
ولكن جبل ميت به غار كفم نخر أسنانه السوس ..
أسنانه التى لا تستطيع أن تبصق ..
هنا لا سبيل إلى وقوف أو رقاد أو جلوس ..
حتى الصمت لا وجود له فى الجبال ..
وإنما فيها رعد مجدب بلا أمطار ..
حتى الوحدة لا وجود لها فى الجبال ..
وإنما فيها وجوه حمر كئيبة تهزأ أو تكشر ..

من قصيدة الأرض الخراب لـ (ت.س. إليوت)
ترجمة د. (لويس عوض)

1ـ الكارثــة ..

فى سن العشرين كان (سليم أنيس) مجرد شاب آخر ..

لقد أوشك على إنهاء دراسته فى كلية العلوم .. قسم الجيولوجيا ، وهى دراسة لم يكن موفقًا فيها تمامًا .. لقد تعثَّر عدة مرات لكنه كان يتحرك إلى الأمام برغم كل شىء ..

لم يعلق شىء من الدراسة فى ذهنه سوى د. (مصطفى) أستاذه الذى كان أقرب الأحياء إلى صفات العالم بالنسبة له .. كان قصير القامة أشيب الشعر ومن الغريب أن قصر قامته كان يعطيه هيبة خاصة .. المفترض أن طول القامة هو الذى يوحى بأشياء كهذه ..

كان د. (مصطفى) مولعًا بالجيولوجيا بحق ، ولسبب ما أحب (سليم) الذى لم يكن بالتأكيد أفضل طالب عنده .. إنها تلك الكيمياء بين الأرواح التى لا يمكن فهمها .. وفى هذا العصر السعيد كانت الدفعة صغيرة جدًا يسهل أن تتذكر اسم كل واحد من طلبتها ، دعك من أن قسم الجيولوجيا لم يكن محببًا إلى هذا الحد لدى الطلبة ، وبالتالى كانت الدفعة صغيرة . ما لم تكن

محظوظًا وتعمل فى البترول ، أو تكن عبقريًا وتعمل فى الجامعة ، فإن مصيرك مبهم نوعًا ..

كانت أسرة (سليم أنيس) أسرة عادية متوسطة من الأسر التى يعود فيها الأب ليتناول الغداء وينام بعد الظهر ، بينما تعد الأم (المحشى) الذى ستأكله الأسرة غدًا لتوفر الوقت .. ترصه بدقة فى تلك الحلة التى ستضعها فى الثلاجة حتى الغد .. الأخت المراهقة التى بدأت تكتشف أن مسحة لون أزرق على الجفنين تجعلها أجمل بشرط ألا يراها الأب حتى لا يفتك بها .. الأخ الأصغر الذى يرى أن أجمل شىء فى العالم هو (الضرب) ..

هناك حبيبة كالعادة .. تلك الفتاة الرقيقة ذات الغمازتين .. هناك صديق .. هناك جيران ..

حياة كاملة مثل حياتى وحياتك ..

فقط كانت هناك صفتان تميزان (سليم) .. ربما ثلاث صفات ..

ولعه بالقطط الصغيرة وهو مزاج بدا مستغربًا بالنسبة لشاب كامل الرجولة .. فقد بدا هذا لمن يعرفه كأنه علامة أنثوية ما .. كان يحب أغانى (فيروز) ويحب النوم لساعة متأخرة ويحب

قراءة الصحف فى الحمام .. دعك من أنه يعانى قرحة معدية مزمنة ، ويبتسم بزاوية فمه اليسرى .. لا بأس .. هذه عيوب يمكن التعود عليها مع الوقت ..

لم يكن (سليم) مهتمًا بشىء على الإطلاق .. هناك (فاتن) صديقة الكلية وهذه كانت تمثل جزءًا مهمًا من عالمه ، لكنه كان يعرف أنه سيفقدها فى أول فرصة ممكنة .. لن يجد الشجاعة أبدًا ليقابل أباها وهو لا يملك دخلاً ولا مدخرات ..

من جهة السياسة كان هذا الكوكب شبيهًا بأرضنا فى كل شىء .. هناك إسرائيل وهناك أمريكا وهناك اتحاد سوفييتى لم يعد كذلك .. نفس مشاكل العرب وإحباطاتهم .. أوروبا تشبه تلك التى لدينا تمامًا ..

أنهى (سليم) فترة التجنيد الإجبارى بعد التخرج ، ثم راح ينظر إلى المستقبل فى قلق وتوتر .

كان بحاجة إلى وقفة (تعبوية) يقرر فيها كيف يتحرك سيناريو المستقبل ..

هنا سقط النيزك ..

* * *

لا يذكر عن تلك الفترة إلا الهستيريا العامة ..

كانت الأنباء تصل بلا انقطاع عن النيزك الذى يقترب من الأرض بسرعة جهنمية .. تلك كانت أجواء نهاية العالم فعلاً .. الناس يصرخون ويبكون ..

التوتر العام .. القلق .. الشفاه المرتجفة ..

فى الشارع تسمع أصوات القرآن يتلى فى المساجد ، وأصوات أجراس الكنائس تدق بلا انقطاع .. لقد كثر الحديث عن (نهاية العالم) ..

سامح كل واحد أعداءه ، واعترف من ارتكب ذنبًا بخطئه ..

أما (فاتن) فقد اتصلت بـ (سليم) تخبره أنها تحبه .. لقد قاومت كثيرًا حتى لا تعترف بهذا لكن الزمن صار شحيحًا والنهاية قادمة ..

ـ « هل تتزوجنى ؟ »

ـ « بالتأكيد .. »

هذه ظاهرة أخرى من ظواهر نهاية العالم هذه .. لقد تزوج عشاق كثيرون جدًا كى يقابلوا النهاية معًا .. ولم يكن الأهل المجهدون قادرين على الرفض ..

ومن جديد تكرر ذات السيناريو الذى عرفناه على أرضنا كلما تنبأ أحد بدنو نهاية العالم .. باع كثير من أصحاب الأملاك ما يملكون بثمن بخس ، وهى مخاطرة دفع الكثيرون ثمنها غاليًا فيما سبق عندما مر الموعد ولم ينته العالم ، من ثم أمضوا باقى حياتهم فى التسول ..

فى عالمنا حدث شىء مماثل عندما جاء العام الميلادى 1000 الذى تنبأ الكثيرون بأنه النهاية .. احتشد الناس فى كاتدرائية كبرى بالفاتيكان يبكون بانتظار ساعة انتصاف الليل ، وعندما جاء الوقت المرهوب توقفت الساعة العملاقة المعلقة هناك (لأسباب مجهولة) من ثم سقط كثيرون موتى بعد أن توقف قلبهم رعبًا !

هناك من الناس من انقطعَ للعبادة ، وهناك من انقطع للهو باعتبار هذه فرصته الأخيرة للفساد .. قليلون انتحروا لأنهم فضلوا الحلول السريعة على الانتظار ..

كان الناس ـ فى مصر على الأقل ـ يلتفون حول أجهزة التلفزيون والمذياع قلقين يتابعون المسيرة الإغريقية الكريهة لذلك النيزك الذى يقترب من الأرض بلا هوادة ، والذى قيل إن محيطه قريب من محيط المحيط الهادى .. أى إن حجمه يماثل حجم القمر ..

يبكى الناس ويتعانقون فى الشوارع .. والمدينون يسقطون ديونهم ..

أما فى دار (فاتن) فقد أقيم حفل صغير حزين على عجلة .. هناك جلس (سليم) وأهله مع أهل الفتاة .. وتتعالى الهمسات :

ـ « إنهما متحابان بحق ! »

ـ « البائسان ! ما كنا لنجرؤ على الرفض .. »

ـ « لو كنا فى ظروف أخرى لركلت ابنكم فى مؤخرته وطردته .. هل يحسب هذا الأحمق أن ابنتنا بلا ثمن ؟ كيف يجسر على أن يحبها وهو لا يملك شروى نقير ؟ »

ـ « لو كنا فى ظروف أخرى لقلت إن ابنتكم ليست العروس التى أحلم بها لابنى .. »

ـ « لكننا لا نملك الشجاعة الكافية لتحطيم قلبين شابين .. »

ـ « مما يحطم قلبنا نحن أنهما لن يريا أطفالهما أبدًا .. »

كان الأمر قاسيًا .. فى أرضنا كانوا يزوجون الجنود السوفييت الشبان الذاهبين إلى الجبهة للقاء النازيين .. وهذا يعنى أن حياة الجندى الشاب الزوجية لن تدوم سوى ليلة واحدة بعدها يرحل إلى الجبهة حيث سيلقى حتفه غالبًا .. أى إن عروسه كانت أرملة مع وقف التنفيذ .. فى هذه الأعراس السريعة كان الشاعر (إيفتوشنكو) الطفل يرقص مقابل ثمرة بطاطس يعود بها لأمه !

هكذا وجد (سليم) نفسه متزوجًا من حبيبة الدراسة .. ظروف غريبة كان سيغبط نفسه عليها لو لم يكن محكومًا عليه بالإعدام .. وفى سره تمنى لو أن الكارثة لم تحدث .. عندها سيخرج مظفرًا وقد نال حبيبة قلبه ، وليس أهلها بقادرين على الاعتراض ..

طبعًا أقام فى شقة جديدة .. لقد صارت الشقق بسعر علب التبغ بعدما باعها أصحابها بأى ثمن .. البعض تصدق بثمن

ما يملكه والبعض راح يلهو به .. ما قيمة المال بعد الآن ؟ فقط الذين احتفظوا بأعصابهم قوية ثابتة راحوا يكنزون الذهب والفضة على أمل أن تنجو الأرض ، وعندها سيكونون أغنى الأغنياء ولسوف ينقلب السلم الاجتماعي بالكامل ..

هذه هي الظروف التي بدأت فيها المأساة ..

* * *

2ـ الارتطـــام ..

أمل عابر لاح في الأفق عندما قررت (ناسا) ـ عندهم واحدة أيضًا ـ أن ترسل صاروخًا هيدروجينيًا إلى قلب النيزك ليقوم بتفجيره وهو في الفضاء قبل أن يلمس الأرض .. على الأقل يغير مساره ..

هذا سيناريو تمت مناقشته من قبل كثيرًا .. وهو حل يبدو لا بأس به ..

حبس العالم أنفاسه يوم انطلاق الصاروخ ، بينما العدسات تنقل المشهد الخرافي .. وللمرة الأولى تعالت في العالم العربي أدعية غريبة مثل (فلينصر الله أمريكا) .. لقد كانت هذه من اللحظات القليلة التي تدافع فيها أمريكا عن العالم كله ، وإن كانت تدافع عن نفسها أولاً طبعًا ..

لشد ما تغدو الحياة أجمل عندما تقترب من النهاية ..

لم أذق في حياتي ألذ من آخر كوب الشاي أو بقايا كأس العصير ..

الكل ينظر للسماء ويبتهل بينما الصاروخ الجبار يحلق نحو النيزك ..

وتم الارتطام والانفجار فعلاً .. وانتظر الناس أخبارًا طيبة لكن هذا لم يحدث ..

لقد تحمل النيزك الصدمة والانفجار الهيدروجيني المروع ، ثم واصل طريقه إلى الأرض .. ذات المسار وذات السرعة ..

هكذا أعلنت (ناسا) أن العملية (ماتادور) قد فشلت .. طبعًا (ماتادور Matador) معناها (مصارع الثيران) ومغزى المصطلح واضح .. كان على المصارع الأمريكى أن يوقف هجمة الثور الفضائى .. لكنه فشل .. وظهر الرئيس الأمريكى على شاشات التلفزيون ليقول إنه (يشعر بقلق) .. والرئيس الأمريكى عادة إما أن تتحسن الأمور فيشعر بـ (تفاؤل مشوب بالحذر) أو تسوء فيشعر بـ (قلق) ..

هذه المرة لم يبك أحد ..

لقد استسلم الناس لقدرهم فى سكون وهدوء ..

وخرجت الصحف اليومية تحمل عبارة (العدد الأخير) ، وكانت مجانية ، لكنها لم تجد من يقرؤها على كل حال ..

وعندما لم تبق إلا ساعات قبل الآباء أطفالهم وسامح الحاقدون أعداءهم ، وصارت الزوجات لطيفات فى ظروف مجهولة ..

فتحت السجون أبوابها لتسمح للمعتقلين بأن يواجهوا الموت أحرارًا ، واكتظت دور العبادة ..

هناك من ابتلعوا الكثير من الأقراص المنومة كى لا يكونوا فى وعيهم عندما يحدث الشىء ..

وفى الساعة الثامنة من مساء الأثنين الحزين تم الارتطام ..

* * *

هذه هى النهاية ..

يا صديقتى الجميلة ..

هذه هى النهاية ..

يا صديقتى الوحيدة ..

نهاية خططنا المحكمة ..

نهاية كل شىء قائم ..

النهاية ..

لا أمان ولا مفاجآت ..

لن أرى عينيك مرة أخرى أبدًا ..

هل تتخيلين ما سيكون

بلا مدى ولا قيود ؟

نبحث فى لهفة عن يد غريب تساعدنا

فى أرض يائسة ..

أغنية قديمة لجيمى موريسون

* * *

لعدة ساعات ظل الجميع يتحسسون أجسادهم بحثًا عن إصابات .. لا شىء ..

المؤكد هو أن شيئًا ما ليس على ما يرام . لقد تغير لون السماء وانقطع إرسال المذياع والتلفزيون .. تحولت هذه إلى قطع من البلاستيك ..

على كل حال خرج الناس فى المساء إلى شوارع القاهرة يتبادلون التهانى .. لقد مر الأمر على خير .. هكذا تذكر من باعوا أملاكهم برخص التراب أنهم كانوا حمقى .. قررت الزوجات أن يعدن للتنغيص على الأزواج .. عادت الضغائن لقلوب من تخلوا عنها ..

أفاق هؤلاء الذين تعاطوا الأقراص المنومة حاسبين أنهم ماتوا .. لكن كان كل شىء كما هو ..

مرت الساعات حتى الصباح فى سلام واحتفالات .. إن هؤلاء الذين أرادوا أن ينهوا وجودهم على الأرض فى اللهو استمروا فيما كانوا يقومون به ، والذين لم يريدوا ذلك قرروا الاحتفال بالنجاة ..

وفى دارهما هتف (سليم) وهو يحتضن (فاتن) :

ـ « لقد نجونا ! وخرجنا مظفرين ! تزوجنا وصار لنا بيت ولم نمت ! »

ـ « نحن محظوظان !! »

قليل من الشباب فى مثل ظروفه من أتيحت له الفرصة بهذه البساطة .. خلال ثلاثة أيام وجد نفسه يجلس بالمنامة فى داره مع زوجته الحسناء التى كانت زميلته فى الدراسة ، وغريبة عنه تمامًا منذ ثلاثة أسابيع . هل جاء هذا النيزك خصيصًا من الفضاء الخارجى كى يجعله سعيدًا ؟ يا للكرم الكونى !

لكن الناس بدءوا يقلقون عندما أشرقت شمس الصباح ..

لم تكن هناك شمس فى الواقع والجو كان غائمًا كأيام الشتاء . يمكنك أن ترى النور لكنه قادم من خلال الغيوم الكثيفة التى تكاثرت فى السماء ..

وفى الحادية عشرة هطلت أمطار كثيفة .. تفاءل الناس لأن هذا يعنى أنها ستغسل السماء غسلاً ، لكن بدا أنه ما من شىء قادر على أن يعيد للسماء زرقتها ..

عادت الطائرات القادمة من العالم الغربى حاملة الأخبار ..

لقد كانت رحلتها مفزعة من دون اتصال لاسلكى .. وقد تلفت بعض أجهزة الكمبيوتر ، لهذا كان من حسن الحظ أنه لم تهو سوى ثلاث طائرات فحسب ..

وكانت الطائرات العائدة تحكى أشياء مفزعة ..

النيزك سقط فعلاً .. لكنه سقط على الأمريكتين .. لقد اختار أن يستقر فى المحيط الهادى باعتباره المكان الوحيد المناسب له . كما يضع الطفل قطع اللعب البلاستيكية فى الثقوب المناسبة لها حجمًا ..

النتيجة هى فيضانات هائلة اجتاحت المحيطين الهادى والأطلنطى .. تغيرات مناخية قاسية .. سحب كثيفة من الغبار تتصاعد إلى عنان السماء لتحجب الشمس ..

أوروبا سليمة . أفريقيا سليمة . آسيا تضررت فقط ناحية السواحل كما هى العادة ..

لقد نجونا ونالت أمريكا جزاءها الشعرى .. هذا هو كل شىء ..

كان الناس يتنفسون الصعداء ..

من الواضح أنهم لم يفهموا بعد الأبعاد الحقيقية للكارثة ..

إن سيناريو K – T قد عاد يتحقق حرفيًا ..

* * *

3ـ الموت الأعظم ..

بالنسبة للحمقى الذين لا يفقهون شيئًا فى علمى الفلك والجيولوجيا ـ ومنهم كاتب هذه السطور ـ انتهت الكارثة على خير .. خلال أيام تصفو السماء ويتهيأ الناس للحياة فى عالم بلا أمريكا .. هذه مشكلة لكنها ليست خطيرة جدًا لأن الناس سيعتمدون الاعتماد على أوروبا .. دعك من أن الصين قوة لا يستهان بها ..

إسرائيل تحولت إلى قط محاصر شرس ينزوى جوار جدار وقد أدركت أن أيامها معدودة .. من دون ولايات متحدة تجد إسرائيل نفسها عارية تمامًا ، لكن أوان دفع الثمن لم يحن بعد ..

بالنسبة لعالم مثل د. (مصطفى) كان يرتجف هلعًا .. لقد توقع السيناريو القادم وعرف حرفيًا ما سيحدث ..

إن نهاية الحياة كما نعرفها قادمة ، لكن ليس بالشكل الذى تخيله الناس ..

سيكون موتًا بطيئًا مريعًا قاسيًا ..

* * *

عندما جلس د. (مصطفى) مع تلميذه (سليم) كانت لديه أسئلة ومخاوف عديدة ، جعلت الدم يتجمد في عروق الفتى ..

لماذا انقرضت الديناصورات منذ ملايين السنين ؟

هذه الكائنات العملاقة برهنت عن كفاءة عالية فى التكيف ، وقد سادت الأرض 165 مليونًا من الأعوام . ثم زالت فجأة فى ظروف غامضة منذ 65 مليونًا من الأعوام ..

ماذا حدث وقتها ؟ ما هو السر الرهيب الذى جعلها تزول ؟ هل هذا السبب قابل للتكرار ؟ بمعنى أدق : هل يمكن أن يجدنا الخلق الجديد مجرد حفريات غامضة بعد ملايين السنين ؟

هناك نظريات عدة يعرف رجل الشارع أكثرها .. منها نظرية غباء الديناصورات ونظرية الوباء ونظرية اصطدام النيزك .. النظرية الأخيرة هى الأشهر طبعًا وتقضى بأن الديناصورات كانت تتمتع بصحة ممتازة عندما هوى نيزك عملاق من الفضاء ، وهذا النيزك بعث سحابة كثيفة من الغبار فى الجو وبالتالى انتهى ضوء الشمس وبادت الحياة ..

هناك فجوة مناسبة جدًا لهذه النظرية فى شبه جزيرة (يوكاتان Yucatan) بالمكسيك .. فجوة تدعى

(تشيكسولوب Chicxulub) ساعات الإيريديوم تؤكد أن هذا النيزك ضرب الأرض فى ذات وقت انقراض الديناصور .. وهذه هى نظرية K — T extinction التى ابتكرها علماء فى جامعة (كاليفورنيا) عام 1980 عندنا .. ومعناها (انقراض الديناصورات فى الفترة بين العصرين الكريتاسى والثلاثى Cretaceous Tertiary border) ، وهذا هو ما يطلقون عليه (الموت الأعظم) .. وهو اهتمام علمي بدا غريبًا لبعض العلماء الذين اهتموا بكيف عاشت الديناصورات لا كيف ماتت ..

فى الحقيقة كانت هناك حادثة موت أعظم سبقت هذه ، هى موت ثلاثية الفصوص Trilobites .. ففى فترة من الفترات أبيدت الحياة على كوكب الأرض تقريبًا ، لكن الكائنات التى بادت كانت صغيرة قليلة الأهمية وأقرب إلى الصراصير ، فلم تلق الاهتمام الكافى الذى ظفرت به كائنات عملاقة مهيبة مثل الديناصورات ..

منذ هذه اللحظة صارت ثقافة (النيزك ـ الذى ـ يمحو ـ الحياة ـ على ـ الأرض) شعبية جدًا .. لاحظ أن كل فيلم ديناصور أو رجال بدائيين ينتهى بانفجار بركان أو حريق وفوضى عامة .. هكذا يُمحى كل شيء ..

لابد أن كارثة كهذه أدت إلى أمطار حمضية وظلام شامل ، وهو ما يشبه الشتاء النووى ، أضف لهذا كثافة غير معتادة فى نسبة الإيريديوم فى التربة فى عدة مواضع ، مما يرجح أن أجزاء النيزك لم تترك مكانًا إلا وسقطت فيه .. لكن هذه النظرية لم تفسر سبب بقاء النباتات والثدييات حية .. كيف تحملت هذه الكارثة التى لم تتحملها الديناصورات العملاقة ؟

ثمة نظرية أخرى تتحدث عن انفجارات بركانية متعاقبة أدت إلى امتلاء السماء بسحب سود مما أدى لشلل الحياة ..

باختصار انقسم العلماء إلى intrinsic gradualists وهم من يؤمنون بكارثة على غرار البراكين جاءت من الأرض وأحدثت أثرها بالتدريج .. و extrinsic catastrophists الذين يؤمنون بمصيبة جاءت من الفضاء الخارجى وأحدثت التغيرات بسرعة ..

كان د. (مصطفى) من الفريق الأخير ، وإن كان بعيدًا جدًا عن القضية وعن الدخول فى أى جدل بصددها ..

لم يكن يعرف أنه سيختبر هذه النظريات عن كثب .. ومن مسافة قريبة جدًا ..

* * *

تم الاصطدام كما قلنا ..

كان د. (مصطفى) يعرف ما قاله العلماء الأمريكيون عن هذا السيناريو .. العلماء الذين لم يعد لهم وجود على الأرجح ..

لو أن الاصطدام تم فى المحيط ، فمعنى هذا موجات هائلة على السواحل .. سوف يتناثر الماء فى الجو وتغرق قارات بأكملها .. أما لو تم الاصطدام على اليابسة فلسوف تحدث زلازل كثيرة .. تبدأ حرائق غابات فى المركز نتيجة حرارة الصدمة ، ثم ينطلق الفتات فى الفضاء ويبدأ تفاعل من الصخور التى تطير ثم تسقط من جديد .. البعض يبقى معلقا فى الجو ويحجب نور الشمس .. وهكذا تصير الشمس معتمة أكثر من القمر لسنوات .. تموت النباتات .. ربما تموت الحياة كذلك ..

كان د. (مصطفى) يمشى فى الشوارع التى يخيم عليها الظلام .. وينظر إلى الناس المليئين بالبشر لأن الاختبار القاسى قد انتهى ، ويقول لنفسه :

ـ « ترى هل من مصلحتى أن أعلم ما أعلمه ؟ فى بعض الأحيان يكون الجهل أفضل .. »

لقد بدأت الزلازل .. وتهاوت بعض النيازك .. بعض البنايات القديمة قد تصدعت ..

لكن مصر كانت بعيدة فعلاً عن مركز التصادم ؛ لذا لم يبد أن شيئًا تغير ما عدا الظلام وبعض الزلازل محدودة الخطر ..

كانت سيناريوهات نهاية العالم كما نعرفه مألوفة لـ (د. مصطفى) .. يطلقون عليها لفظ التدليل (تيوتواوكى TEOTWAWKI) وهو الحروف الأولى من عبارة :

(The end of the world as we know it) ..

يلخص العلماء الأمر كله بصراع بين قصيدتين .. القصيدة الأولى للشاعر (فروستFrost) يقول فيها :

« البعض يزعم أن العالم سينتهي بالنار ..

البعض يزعم أنه سينتهي بالثلوج ..

من تجاربى مع الشهوات .. أضم صوتى لمن يتحدثون عن النار .. »

القصيدة الثانية للشاعر (ت. س. إليوت Eliot) الذى يقول :

« هكذا ينتهى العالم .. ليس بالانفجارات بل بالأنين .. »

ترى من الشاعر الأكثر شفافية ؟ علماء الغرب أعلنوا فوز (ت. س . إليوت) بكأس الشفافية والقدرة على التنبؤ .. إن نهاية الكون هى التفتت والاحتضار البطيء إلى أن يتلاشى .. هكذا يعتقدون طبعًا ..

الكون يتمدد بلا انقطاع منذ الانفجار الأول Big Bang وهو شيء لاحظه (أينشتاين) .. لاحظ كذلك أن سرعة الأجزاء البعيدة منه لا تبطئ لكن تتزايد .. هذا شيء غريب .. معنى هذا أن هناك مادة غريبة بين الأجسام الكونية أطلق عليه اسم (ضد الجاذبية) .. ذلك الاسم الذى عدل عنه فيما بعد واعتبره غلطة عمره .. الحقيقة أنه لو تمسك بهذا المفهوم لنال جائزة نوبل ثانية ، لأن علماء الغرب لم يعد لهم همّ إلا دراسة هذه المادة الغامضة المضادة للجاذبية التى تجعل تمدد الكون يزداد سرعة كلما تقدم الزمن .. الكون يتمدد ويتباعد إلى أن يصير لا شيء تقريبًا كما يرى علماء الغرب .. لكن فهم هذه الأمور مستحيل على كل حال من دون معادلات ، ومن دون أن تكون فيزيائيًا ..

يقول عالم الفلك الأمريكي (مايكل تيرنر) : « لو كنت تعتقد أن الكون معقد وعسير الفهم ، فعليك أن تبتلع بعض أقراص الصداع لأن الأمور سوف تزداد سوءاً .. »

لكن هذه لم تكن نهاية الكون كما نعرفه .. كانت فقط نهاية حياة البشر على الأرض كما نعرفها ..

لقد بدأ السيناريو K – T فعلاً ..

نفس السيناريو الذى أدى لانقراض الديناصورات منذ ملايين السنين قد بدأ يعمل .. فقط هو موت بطيء قاس .. برد شديد لكنه غير كاف لقتل الحياة على وجه الأرض .. ظلام دامس .. صارت الشمس حلمًا عسيرًا ..

لكن أشنع ما فى الأمر لم يأت بعد ..

* * *

4- حياة الظلام ..

حدثت هذه الأحداث فى الثمانينات ..

الآن صارت الأمور أكثر وضوحًا وعرف الناس ما عرفه د. مصطفى منذ عشرين عامًا ونيف ..

لقد صار الظلام قاعدة .. لم يعد هناك بصيص نور عابث متسلل يجد طريقه لعيونهم كما كان فى أيام الكارثة الأولى .. بل صار ظلامًا كثيفًا حقيقيًا كالذى تراه – أو لا تراه – إذا أغمضت عينيك الآن ..

لم يعد هناك صباح .. لا نهار .. لا شمس ..

الكل يعرف أن الشمس العزيزة لم تول ولم تتخل عن مهمتها أو تمارس الإنتروبى entropy كما توقع علماء الفيزياء ، لكنها كمحبوبة تناديك فى لهفة ، لكن تفصلك عنها أستار كثيفة ..

من حين لآخر تدوى عواصف رعدية مرعبة . ويهوى البرق ليحرق شيئًا .. عندها فقط كان الناس يتذكرون ما هو البصر .. لكن كان يتم إطفاء هذه النيران خلال ثوان لأسباب سنعرفها حالاً ..

هكذا انتهت من اللغة كلمات مثل (صباح الخير) و(نهارك سعيد) .. فى البدء كان من يستعملها يجلب لنفسه السخرية ، وبعدها صار من يستعملها يجلب لنفسه اللوم ..

هناك أشياء لم يعد لها معنى .. ما معنى أن اللبن أبيض ؟ ما معنى أن البحر أزرق ؟ ما معنى أن فلانًا أصفر من الحقد أو أحمر من الغيظ ؟ هذه ثقافة لم يعد فيها مكان للون ..

فى البداية كانت السيطرة المطلقة فى هذا المجتمع للعميان .. لقد كانوا كذلك منذ البداية ولم يخسروا شيئًا .. كانوا يستطيعون تدبير أمورهم واستمر الحال كذلك .. وكان من الممكن لو أنك تملك القدرة على الإبصار أن ترى رجلاً كفيفًا يقتاد مبصرًا فى الظلام .. هناك فيلم شهير لأودرى هيبورن اسمه (انتظر حتى يحل الظلام) .. فى هذا الفيلم هى امرأة كفيفة تواجه غزوًا من القتلة لدارها .. إنها ضعيفة هشة كعصفور صغير ، لكنها تقرر أن تقطع النور عن البيت ليسود الظلام .. بهذا فقد المهاجمين تفوقهم وصاروا دمى عاجزة فى قبضتها .. إنها تعرف كيف تجد طريقها .. تعرف كيف تجد السكين .. تعرف كيف تهجم فى الظلام وتقتل ..

هذا هو ما حدث بالضبط فى بداية أيام أرض الظلام ..

مع الوقت تعلم الناس كيف يمشون عن طريق تحسس طريقهم ، وبالتالى كان لابد للسيارات أن تنقرض .. لايمكن أن تقود سيارة فى ظلام دامس حتى لو أردت .. انقرض الطيران وعادت رقعة العالم ضيقة محدودة .. كل بلد منغلق على نفسه يطبع صحفه بطريقة (برايل) .. وظهرت ثقافة جديدة هى ثقافة العمى ..

هناك معارض للفن التشكيلى لكنك تدخلها كى تلمس اللوحات ، وتبدى إعجابك بامتزاج الخشونة بالنعومة .. مثلاً قال أحد النقاد عن معرض الفنان (نادر وهبة) :

ـ « الخطوط الحادة البارزة القاطعة توحى بالحتمية ، بينما المنحنيات الناعمة توحى بانكسار الروح .. الخشونة سمة عامة فى كل اللوحات .. صنعها الفنان عن طريق تمزيق ورق الصنفرة ولصقه على مسار البشرية .. إنه يقول بوضوح إن الرحلة لم تنته بعد .. »

كان هناك ازدهار فى الفنون السمعية .. تراجع الكتاب والتلفزيون كثيرًا جدًا لتتقدم التمثيلية الإذاعية والأغنية ..

تعلم الناس كيف يتعاملون بالنقود البارزة ، لكنهم وجدوا أنها مكلفة فعلاً ، لذا عادوا للأوراق المالية القديمة مع اتفاق عام على ثنيها بطرق تدل على قيمتها . لم يكن من مصلحة أحد أن يغش لأن هذا يعنى أن هناك من سيغشه غدًا ..

هذا هو توازن الحقيقة .. لا تغش الناس كى لا يغشوك ..

كل هذا متوقع .. وعلى كل حال قنع الناس بالنور فى بيوتهم يشاهدون الأفلام القديمة التى تظهر أيامًا كانت الشمس فيها تغمر المروج ، وقد اقتنى الأثرياء مصابيح شمسية تعطى ذات دفء ووهج ونفع ضوء الشمس لتنير بيوتهم ..

أما ما لم يتوقعه الناس فهو أن تزحف الظلمة إلى بيوتهم ذاتها ..

* * *

لسبب ما بدأت الطاقة تفنى فى الكوكب كله ..

لقد حار العلماء فى فهم هذه الظاهرة ، وقالوا إن السبب هو أن الطاقة فى جميع صورها تأتى من الطاقة الحرارية للشمس والنجوم .. لا توجد مصادر طاقة أخرى فى الكون .. من دون

شمس تفقد الأرض ما اختزنته من طاقة حركية وضوئية وصوتية وكهربية Entropy .. هناك نظريات عدة حاولت تفسير ما حدث لكن المهم فى الموضوع هو أن الطاقة بدأت تتلاشى ..

كان أول ما لاحظه الناس هو أن الأضواء خبت فى ديارهم .. ثم انطفأت تمامًا ..

خرجوا للشوارع مذعورين ليكتشفوا أن أعمدة النور لم تعد تعمل ..

لم تعد هناك كهرباء ..

بعد هذا اكتشف كل من يملك محركًا أو سيارة عتيقة أنها لا تدور ..

حتى النار ذاتها لم تعد قادرة على تسخين شىء ولم تعد تبعث نورًا حولها .. ولا يعرف الناس متى ولا كيف اختفت القداحات وأعواد الثقاب .. لم تعد هذه الأشياء تباع لأنها لم تعد ذات قيمة ..

هكذا كان العالم ينزلق بسرعة إلى فجوة مظلمة .. ظلام لا يمكن معه أن تضىء عود ثقاب أو مصباح كيروسين ..

كانت النباتات تموت ..

وتحولت مساحات هائلة من الأراضى الزراعية إلى صحراء ..

بدءوا يأكلون الحيوانات وهم مذعورون من اليوم الذى ينتهى فيه هذا .. وكانت الحيوانات بدورها تموت بسرعة مذهلة لأنها لم تعد تأكل النباتات ..

إلا أن العلماء اليابانيين توصلوا إلى تخليق نوع من الأعلاف تأكله الحيوانات .. وبدأ تصدير هذا المنتج إلى كل بقاع الأرض .. هكذا استطاع البشر إنقاذ الثروة الحيوانية قبل أن تنقرض تمامًا ، وهذا يعنى انقراضهم هم أيضًا .. الديناصورات لم تكن تملك عقولاً ولم تكن عندها هندسة وراثية أما البشر فأحسن حظًا ..

لقد صار طعام الإنسان يتكون من اللحوم واللحوم واللحوم .. عالم مصاب بالإمساك وبالطبع نقص فى الألياف مما يجعل الطريق لسرطان القولون ممهدًا ..

أما عن التسخين فالفضل يعود للعلماء الألمان الذين تمكنوا من تطوير نوع من البكتريا التى تعيش فى الظلام ، وتقدر على إنتاج تفاعل حرارى يصلح لطهى وجبة .. ربما يكفى للتدفئة كذلك ..

نال العالم الألمانى الذى طور هذه البكتريا جائزة نوبل فى الفيزياء ، وقد تقدم ليأخذها وسط الظلام .. يحرك عصاه كى لا يتعثر على المنصة .. فقط ليصطدم بملك السويد الذى يفتش عنه إلى أن يجد يده فيدس فيها الجائزة ..

قال له ملك السويد :

ـ « متى تنتجون بكتريا قادرة على توليد الضوء ؟ »

قال العالم فى انفعال :

ـ « قريبًا يا مولاى .. قريبًا جدًا .. سوف تعود البشرية للإبصار .. أعد بهذا .. »

صحيح أنهم وجدوا جثة هذا العالم ملقاة فى غابة مظلمة قريبة من داره فى (لندرهوف) بعد عودته من السويد بأسبوع .. وجدها رجل يتحسس طريقه نحو داره واستغرق رجال الشرطة وقتًا طويلاً حتى يعرفوا من القتيل .. إن الطرق البصرية كلها لا تصلح .. لكن أحدًا لم يربط بين كلماته الأخيرة وما حدث له .. إن انتقال الأخبار عاد سيئًا كما كان ، وهذا أدى إلى بطء غير معتاد فى التعامل مع الحقائق والاستنباط والاستقراء .. حينما عرف الناس أن هذا العالم قد مات كانوا قد نسوا تمامًا ما قدمه للبشرية ، وقيل إنها عملية سطو مسلح ..

على كل حال كان الناس مستمرين فى عملية التأقلم ، وكما عرفنا صارت المستشفيات تنادى زبائنها بمكبرات صوت بدائية .. والمطاعم تقوم بالتهوية على أطعمتها ليشمها الناس .. يتساءل سائل كيف تعمل محركات المراوح إذن ؟ الإجابة أن الزنبرك عاد ليسترد أمجاده القديمة .. مروحة تعمل بـ (الزمبلك) صارت تساوى أكثر من عشر مراوح كهربية .. لقد كان الناس يعيشون قبل عصر الكهرباء والسيارة وها هم أولاء قد عادوا لذلك . مع فارق مهم هو أنهم يجربون الحياة بلا نار ..

تطور الطب السريرى ليواكب العصر .. بعبارة أخرى انتهى دور البصر فى الموضوع واعتمد الكل على التحسس والسمع والدق .. بالطبع انتهى دور أجهزة الأشعة تمامًا .. فرع كامل مثل طب العيون لم تعد له أهمية وتم ضمه إلى الجراحة العامة .. نفس الشىء حدث مع طب الأمراض الجلدية .. فى عالم لا يبصر لا يهم أن يمتلئ جلدك بالقروح أو البثور .. لقد انتهت لفظة (قبح) تمامًا .. فقط تطلب عون الطبيب لو شعرت بحكة أو التهاب أو ألم ..

الأمراض المعدية ازدهرت بشكل غير مسبوق .. هذا عالم لا يعرف التأثير المطهر لأشعة الشمس .. كل شىء يفسد ويتعفن ويتخمر .. لهذا سادت الرائحة الكريهة بقاعًا كثيرة من البلاد .. دعك من أن انعدام الرؤية جعل المرء أقل حرصًا فى عاداته الصحية .. تذكر قصة الشاعر الماجن اللعين (بشار بن برد) الذى كان أعمى ، ولم يتحرج من أن يتبول أمام ضيوفه وهو يكمل كلامه معهم .. عندما لاموه على ذلك قال لهم : أنتم مبصرون وأنا أعمى .. لهذا أولى بكم أن تغمضوا أعينكم ولا تنظروا ، أما أنا فلا حرج على ..

دعك بالطبع من أن غسيل الوجه وحلاقة شعر الرأس صارت أفعالاً نادرة ..

وفى فترة من الفترات كان الشاب يذهب لبيت الفتاة مع أهله .. هنا فقط يُسمح له بأن يتحسس ملامح عروس المستقبل هذه .. وكانت الفتاة بعد هذا تدور على نساء أسرته ليتأكدن من أنها جميلة متناسقة الملامح ..

هذا الإجراء كان مشينًا وغير إنسانى بالطبع ، لذا شاعت موضة الصور المجسمة .. صورة بارزة للوجه أقرب إلى تمثال

يمكن أن يتحسسها العريس ليعرف إن كان أنف الفتاة الكبير قادرًا على أن يملأ حياته بالسعادة أم لا ..

وببطء تسربت الصور المجسمة إلى كل شيء .. صارت وسيلة تعامل حكومية معروفة .. أما التوقيع فقد حلت محله بصمة الأذن ..

لقد ولد جيل كامل لم ير الضوء فى حياته .. جيل من أطفال الظلام .. لكن أغلب هؤلاء كان يموت بأمراض نقص الشمس أو تتشوه عظامه بالكساح ..

كان ابن (سليم) من هذا الطراز .. لقد أدرك (سليم) أن ساقى الصغير تحولتا إلى قوسين كهذين) (.. لكنه سعيد الحظ لأنه رزق بابن على الأقل فى هذه الظروف الصحية المريعة ..

اليوم صار الصبى فى العشرين .. وصار (سليم) الشاب فى الأربعين .. لم تعد (فاتن) كما كانت .. لكن هذه أشياء يمكن أن تعرفها باللمس .. هذه التجاعيد على وجهها . الجلد الذى فقد نضارته .. لأنه لن يرى الشيب أبدًا ..

لن يرى وجه ابنه أبدًا ..

هذه أشياء تعذب أولئك الذين عاصروا النور . وهم يحكون عنه لأولادهم فلا يفهم هؤلاء شيئًا .. يحسبونه كلام عجائز لا أكثر ..

* * *

5ـ القومنـــدان ..

يحكى (سليم) لابنه بعد العشـاء الـذى تكـون من لحم ولحم ولحم :

ـ « كنا نصحو من النوم لنرى الشمس .. جسمًا شديد الوهـج عملاقًا حارًا يبرز من الشرق .. »

يسأله الفتى :

ـ « ما معنى وهاج ؟ »

ـ « أى إنه .. أى إنه يبعث نورًا قويًا .. »

فيبتسم الفتى ويخجل من أن يسأل عن معنـى النـور .. فيقول فى أدب :

ـ « هه هه ! »

يواصل الأب الكلام :

ـ «عندها كـان القمـر يتلاشـى ومعـه النجـوم .. كأنـه يتـوارى خجلاً من كل هذا البهاء . . . »

فيسأله الفتى فى الظلام :

ـ « القمـر ؟ تعنـى ذلـك الجسـم الـذى انفصـل عـن الأرض يومًا ما ؟ أعتقد أن النجوم هى تلك الشموس الصغيرة التى .. »

ـ « بـالضبط .. النجوم كـانت جميلـة .. لـم يكـن هنـاك شـىء أجمل منها .. فى قريتى كنت أرقد فى الحقل على ظهـرى أصغى لصوت الحشرات الليلية ونقيق الضفـادع فـى الجـدول .. وأنظـر للسـماء فأتخيلهـا فلاحـة حسـناء عملاقـة نثـرت الترتـر علـى ثوبهـا .. »

ـ « ما معنى حسناء ؟ »

ـ « أى متسقة الملامح .. عندما تمرر يدك علـى جـانب فمهـا لا تصطدم بشىء .. لا تجد تلك الحفر التى تجدها على جانبى فم أمك .. لا تحيط بعينيها تلك الأخاديد .. هذه هى الحسـناء .. عم كنا نتكلم ؟ »

يقول الفتى فى ملل :

ـ « عن معنى فلاحة حسناء تشبه النجوم التى .. »

ـ « نعم .. نعم .. ثم يدنو الليل من نهايته .. تقترب الشمس من الأفق الشرقى .. عندها يصطبغ الأفق بلون الدم مخلوطًا بلمسة قرمزية وردية بنفسجية .. »

ـ « ما معنى هذا كله ؟ وما هو لون الدم ؟ »

ـ « إنه أحمر .. »

هكذا كان حوار الطرشان يستمر عدة ساعات .. وذلك الشعور الممض الذى يعذب (سليم) بأنه ممل ومخبول فى نظر ابنه .. يتذكر جده عندما كان يحدثه عن الخمسة القروش التى ابتاع بها بيضًا ورطلى لحم وزيتًا وخبزًا ثم تنزه بما بقى .. نفس الشعور ..

هكذا كان يفضل الصمت ..

* * *

فى تلك الأعوام طرأت تغيرات كبرى على العالم ..

لا يعرف أحد متى صارت حقيقة واقعة لكنها كانت تدريجية جدًا .. مثلما ترقب أنت الغروب فى عالمنا فترى الشمس ساطعة

ثم تتداخل بعض الظلال والألوان لا يهم .. ما زال الضوء موجودًا .. تزداد الظلال كثافة ويصطبغ الأفق باللون القرمزى . لا تدرى متى ولا كيف وصلت لهذه النتيجة .. لكنك صرت فى الليل فعلاً وهاك كوكب الزهرة يضيء وحيدًا فوق البنايات فى خط الأفق .. متى صار النهار ليلاً ؟ لا تستطيع أن تمسك بلحظة فاصلة ..

متى سمع الناس عن القومندان ؟

لا يدرون ..

متى امتلكت الشرطة تلك الأجهزة التى تتيح لها الرؤية ؟ متى صارت لهم سياراتهم ؟

لا أحد يذكر ..

فقط يحمل الناس ذكرى مبهمة عن الرجل الذى لم يره أحد والذى اتخذ مقره فوق قمة جبل (إفرست) .. فى أعلى موضع من العالم يمكن لهذا الرجل أن يرى ضوء الشمس لأنه يعلو طبقة سحب الغبار التى تغلف العالم ..

من هذا الرجل ؟ من أين جاء ؟ لا أحد يعرف .. يقولون إنه راهب من رهبان التبت .. لكنه قوى جدًا تسانده عصابة قيل إنها من الجنرالات السابقين المنشقين على جيوش الصين والاتحاد السوفييتى سابقًا ..

هذا الرجل جاء حرفيًا ليحكم العالم .. من مقره الشبيه بمقرات أشرار أفلام (جيمس بوند) فى السينما يمكنه أن يراقب كل شىء .. يمكنه أن يقصف بصواريخه أية دولة متمردة ..

لكن النقطة الأهم هنا هى أنه يرى بينما الناس جميعًا لا يرون .. إنه فوق مستوى الظلام .. بالتالى هو قوى جدًا كأى مبصر يسيطر على مجموعة من العميان ..

ماذا يريد هذا الرجل ؟

المنشور الذى كتب بلغة (برايل) والذى رددته مكبرات الصوت فى كل مكان يقول :

« القومندان يحكم العالم وليس بوسع أحد أن يقاومه.. القومندان لا يطالبك بشىء ولا يرغمك على التخلى عن وطنك أو دينك .. المسلمون سيظلون مسلمين .. المسيحيون سيظلون مسيحيين .. اليهود يبقون يهودًا .. وكذا يبقى البوذيون والكونفوشوسيون والهندوس .. فقط يطلب القومندان أن تقدموا له نسبة من دخلكم مقابل حمايتكم .. »

« القومندان يرى .. لهذا يقدر على حمايتكم كما أنه يقدر على إيذائكم .. إن القومندان دان من الشمس ؛ لهذا لديه موارد الطاقة ولديه النباتات التى استزرعها على قمة الجبل .. »

« الظلام مقدس . لهذا يجب أن تعيشوا فيه أبدًا .. النور دنس يلوث الظلام لهذا يحرم عليكم البحث عنه .. لا أحد يشعل نارًا .. لا أحد يبحث عنها .. إن النار حق أصيل للكاهن وليس من حق سواه .. »

« إن من يجرؤ على استعمال النار أو البحث عنها يرتكب إثمًا يقترب مما يسميه أتباع الديانات بالكفر .. جزاء استعمال النار بأى شكل هو الموت .. العذاب ثم الموت .. »

« القومندان لا يطلب منكم التخلى عن ديانتكم أو معتقداتكم أو كرامتكم .. كل ما يطلبه هو أن تتخلوا عن كبريائكم .. وجزء بسيط من مالكم .. »

كان الذعر الذى سببه هذا المنشور يفوق قدرتى على التعبير ، لكن الناس لا يذكرون فعلاً متى رأوه لأول مرة .. كما قلت سابقًا كان كل ما يتعلق بهذا القومندان يتم بشكل تدريجى ..

كان الناس لا يرون .. كانوا فى حالة وهن وهشاشة شديدة ، وهكذا خضعوا بلا مناقشة لهذا الكلام .. فى البدء شعروا أن الرجل يستدرجهم إلى نوع من العبادة ، وتأهبوا للثورة ، ثم رأوا بأنفسهم أنه لا يطلب شيئًا سوى المال والنفوذ ..

هكذا خضعوا له ..

أرغموا أنفسهم على الحياة فى ذلك العالم المغلق المظلم الذى اختاره لهم .. هذا الوضع الذى يطلق عليه الغربيون اسم brain in a vat أو (المخ فى وعاء زجاجى) .. حياة كاملة مزيفة تعيش فيها راضيًا منعزلاً عن العالم الخارجى الحقيقى ..

فى الوقت ذاته تقريبًا بدأت ظاهرة دوريات الشرطة .. لقد صارت الشرطة فى كل البلدان خاضعة لهذا القومندان .. وقد لاحظ الناس أن سيارات هؤلاء تعمل برغم مشكلة الطاقة العامة .. معنى هذا أنهم طوروا تقنية خاصة بهم .. قيل إنها الخلايا البيولوجية ..

هنا تذكر الناس ـ بعضهم على الأقل ـ العالم الألمانى الذى وجد قتيلا .. كان هذا العالم يحلم بأن يولد الضوء بطريقة بيولوجية .. يمكن لذوى الخيال الخصب أن يتصوروا أنه قتل لهذا الغرض بالذات .. لمنعه من القضاء على الظلمة وهى السلاح الأقوى فى يد القومندان . دعك من أن تجاربه على الأرجح هى التى جعلت هذه المحركات تعمل .. لابد أن هناك من سرق أبحاثه ونفذها وقتله كى لا يقدم أكثر ..

النقطة الثانية هى أن هؤلاء يبصرون . وكم من شابين وقفا يتهامسان فقط ليشعرا بأيدى رجال الشرطة الغليظة على كتفيهما .. متى جاء هؤلاء وكيف ؟ لايوجد سوى احتمال واحد هو أن رجال الشرطة منتشرون بشكل لا يمكن تخيله ، وأنهم يرون .. لا يمكن سوى لإنسان يرى أن يقوم بهذه العمليات .. وفيما بعد عرفوا أن هناك أجهزة إبصار خاصة يضعها رجال الشرطة .. إنها قريبة جدًا من أجهزة الرؤية الليلية التى نعرفها نحن ، لكنها ذات مرشحين .. مرشح يقيس الحرارة المنبعثة من الأجساد . ومرشح يقيس الأشعة الكونية الشحيحة التى تصل للأرض .. ومن هاتين الصورتين تتكون صورة عالية الدقة كأنك تراها فى شمس الصباح ..

هكذا تتحرك الشرطة في كل مكان وسط أناس لا يرون شيئًا .. هذه قوة مروعة .. نفس القوة التي ينعم بها أي جيش يملك معدات الرؤية الليلية .. تصور ما يقدر عليه جندي مكافحة الشغب الذي يلبس قناعًا مضادًا للغازات وسط متظاهرين يحرق الغاز المسيل للدموع عيونهم .. إن قوته لمطلقة .. إنه يرى ..

كان الناس في كل العالم يعرفون أن هناك نهبًا يجري لهم .. في مصر مثلاً لم يكن أحد يعرف أن المتحف المصري صار خاويًا وإن سرت إشاعات كهذه .. في فرنسا لم تعد هناك لوحة واحدة في اللوفر .. ما يتحسسه الزوار والسياح هو هياكل مزيفة ..

أين ذهبت هذه الثروات ؟ على الأرجح هي هناك في جبال الهيملايا .. إن القومندان قد قرر أن يحب الفنون بالإضافة إلى نفوذه ..

لكن أحدًا لا يتكلم عن هذه الأمور ، لأنه قد يفاجأ بأن جاره ليس وحده .. يمكن أن تتكلم ربع ساعة ثم تكتشف أن هناك عشرة رجال شرطة في الغرفة معك ..

وقال الحكماء :

ـ « ما الذي يهم في بعض التماثيل ؟ إن العالم يتجه نحو النهاية بسرعة جهنمية .. فلماذا تهتم بأمور كهذه ؟ »

★ ★ ★

6ـ الضـــوئيـون ..

د. (مصطفى) كـان هـو مـن بـدأ الشرارة فى مصر على الأقل ..

العجوز الواهن الآن .. لم يعد هو ذلك الرجل الممتلئ قوة وحيوية وعلمًا .. احتفظ بعلمه وقوته النفسية وفقد كل شىء آخر ..

لقد بدأ الأمر بلقاء مع (سليم) .. الظلام يجعلك عاجزًا عن معرفة هل أنت وحدك أم أن هناك خمسين شرطيًا يحيطون بك ، لكنه طلب من (سليم) أن يأتى له فى داره هذه الليلة .. لماذا ؟

ـ « عندما نلتقى ستعرف .. »

* * *

فى التاسعة مساء دخل (سليم) إلى بيت أستاذه العجوز..

لا معنى بالطبع لليل ولا النهار فى ذلك العالم ، لكن الحاجة إلى تقسيم اليوم إلى ساعات قديمة جدًا لدى الإنسان . وقد

شاعت الساعات الناطقة بينهم ، كما أن هناك ساعات تعتمد على أن يتحسسها المرء بأنامله ليعرف موضع العقارب .. كلها تعمل بالزنبرك طبعًا ..

فى الظلام جلس (سليم) .. ظلام دامس طبعًا ، لكن هناك درجة ما من التكيف البصرى يعرفها من يبقون فى الظلام لفترة طويلة .. عندها ترى أجسامًا رمادية كأنها الأشباح ..

وقد شعر بمن يقترب منه ثم شعر فى كفه بعلبة من العصير .. إنه د. (مصطفى) .. فكيف يتحرك بهذه البساطة فى الظلام ولا يتعثر ؟

ـ « ما رأيك فى هذا كله ؟ »

ـ « رأيى فى أى شىء ؟ »

ـ « فى الظلام الذى كتب علينا أن نواجهه .. »

ـ « هو قدرنا .. »

قال الأستاذ العجوز وهو يجلس جواره :

ـ « نعم ..لكن لانقبل أن يأتى أحدهم ليعيش فوق الغيوم وينعم وحده بالنور والنار وهو بشرى مثلنا .. من أعطاه هذا الحق ؟ »

قال (سليم) فى بساطة :

ـ « حق القوة .. هو استطاع هذا ففعله .. »

قال د. (مصطفى) فى إنهاك :

ـ « أنا لن أعيش أكثر .. أعرف أن أيامى هنا معدودة وأن إحدى قدمى فى القبر بالفعل ، لكنى أكره أن أرى البشر يتعذبون قبل رحيلى .. هذه ليست حياة .. يجب أن تصير النار والكهرباء من حق الجميع .. »

فى دهشة قال (سليم) :

ـ « أنت تعرف تلك الظاهرة المحيرة التى لم يجد العلماء لها تفسيرًا .. النار لم تعد ذات قيمة .. تلاشى وهجها وما تبثه من دفء .. حتى لو تجاسر أحد على استخدام النار اليوم فلن يجنى منها إلا الموت .. »

ـ « ما لدينا من معلومات يقول إن هذا القومندان اختص نفسه بتقنيات حديثة .. عنده نار حقيقية تدفئ وتحرق .. لديه طرق لتوليد الكهرباء الفاعلة .. لقد اختص نفسه بكل ما يجعل الحياة ثمينة بينما نحن هنا نتخبط فى الظلام .. تقتلنا الأوبئة ويولد

أطفالنا مصابين بالكساح .. لو كانت عندنا كهرباء لنجحنا فى تعريض الأطفال لشمس صناعية .. سوف تضاء الشوارع فلا يمشى الناس متخبطين يتحسسون الجدران .. »

قال (سليم) نافد الصبر :

ـ « ليكن .. هذا ظلم .. ولكن ماذا يمكن عمله ؟ »

ـ « نحن قلة .. لكننا نعرف كيف نجد بعضنا .. »

فى هذا الكوكب كانت هناك ثورة يوليو كذلك ، وقد توقع (سليم) أن يكلمه (مصطفى) عن تنظيم اسمه الضباط الأحرار كما رأى فى عشرات الأفلام السينمائية .. الجو كله يوحى بذلك .. الرجل يحاول ضمه إلى تنظيم سرى يحارب ذلك اللص الذى يدعو نفسه بالقومندان ..

قال د. (مصطفى) :

ـ « نحن نطلق على أنفسنا اسم : (الضونيين) .. هؤلاء الذين يؤمنون بحق الجميع فى الضوء .. الضوء ليس حرامًا أو جريمة فيما عدا أنه يضعف من سيطرة ذلك الطاغية .. هناك ضونيون فى اليابان وفى ألمانيا وإيطاليا والسودان وتنزانيا

والهند .. فى كل مكان من الأرض .. مهمتنا الحالية هى أن نجد بعضنا .. بعد هذا ستأتى اللحظة التى ننتزع فيها حقنا فى الحياة .. لقد استلبنا النيزك ضوء الشمس .. فلن نترك ذلك القومندان يسلبنا شيئًا آخر .. »

قال (سليم) فى حيرة :

ـ « ولماذا فكرت فىّ بالذات ؟ »

ـ « لأنك صادق القلب .. أعرف أنك صادق القلب .. صحيح أنك جاهل لكن الغباء لم يجعل المرء شريرًا قط .. »

هل هى مجاملة أم سباب ؟

ـ « شكرًا .. »

هنا سمع (سليم) صوت الحركة الخافتة فتوتر ، ثم قدر أن هذا حيوان يتسلل فى ركن بالدار .. لكن د. (مصطفى) صاح وهو ينتفض :

ـ « إنه هنا ! لقد تسلل أحد (البصاصين) هنا ليسمع ما نقول ! لو غادر الدار لانتهى أمرنا ! »

ولم يدر (سليم) إلا وجهاز ثقيل يوضع على رأسه .. كأنها خوذة تتصل بأسلاك .. وسمع الأستاذ يقول :

ـ « أنا لن أستطيع مواجهته ! هلم استعمل هذا المنظار وابحث عنه ! »

للمرة الأولى منذ أعوام لا حصر لها يرى (سليم) ..

كانت الصورة واضحة نقية ، وإن اكتسبت صبغة خضراء مرعبة .. إنه يرى .. بالفعل يرى الشقة ويرى وجه أستاذه العجوز الذى لم يره منذ أعوام .. الأستاذ الذى صار كفيفًا تمامًا الآن .. يرى المنضدة الصغيرة وفوقها علبة العصير ..

رباه ! ما أثمن الضوء ! وما أروع التفاصيل التى نسيناها فى الظلام !

إذن كان هذا الجهاز على رأس الأستاذ عندما قابله ، ولهذا كان العجوز يتحرك بحرية كاملة وسلاسة ..

ـ « هلم ! لا تقض الليل كله هنا ! »

نهض (سليم) وهو يشعر بأن ما يحمله على رأسه يزن أطنانًا ..

خرج إلى مدخل الشقة فرأى البصاص يحاول الفرار ..

كان رجلاً نحيل القامة فى الأربعين من العمر يضع على رأسه جهازًا مماثلاً ، ويحاول فى رفق أن يفتح باب الشقة ليغادرها من دون جلبة .. يبدو أنه أدرك أن أمره انكشف .. كانت قوته تكمن فى جلوسه مع كفيفين .. ثم أدرك أن أحدهما مبصر وأن ما اكتشفه خطير سيسيل له لعاب رجال الشرطة .

للمرة الأولى يتحرك (سليم) بسرعة منذ أعوام .

للمرة الأولى يسترجع أيام صباه .. لقد جعله الذعر ينفض أعوامًا من السكون ..

لقد وثب من فوق الأريكة .. وسرعان ما هوى على البصاص ليسقطه أرضًا ..

كانت هناك طريقة واحدة سهلة للقتال .. لقد انتزع المنظار من فوق رأس الرجل ..

وفى اللحظة التالية صار البصاص عاجزا عن رؤية أى شىء .. لقد سقط على الأرض وراح يتحسس الجدران محاولاً النهوض فالفرار .. الآن صار هذا مستحيلاً ..

لقد وجه له (سليم) أعنف ركلة ممكنة فى نقفه ، ثم تلاها بركلة أعنف فى وجهه .. أما نهاية المعزوفة فكانت أن وثب فى الهواء ثم هبط بقدميه معًا على ضلوع البصاص ..

كانت هذه هى النهاية .. وسرعان ما تكوم الرجل بلا حراك .. من فمه يخرج سائل أخضر .. على الأرجح هو دم ما لم يكن كائنًا فضائيًا .. وشعر (سليم) بآلام قرحته تستيقظ .. القرحة التى لا تتركه فى حاله أبدًا ..

سمع صوت د. (مصطفى) يتحسس طريقه نحوه ..

مد يده يساعده على الوصول إليه ، فقال الأستاذ العجوز :

ـ « أعتقد أنهم سمعوا دعوتى لك فى دارى فأرسلوا من استبق موعد اجتماعنا كى يعرف عما نتكلم بالضبط .. يمكن أن يدخل معك ولا ندرك ذلك .. ربما كانوا يراقبونك أو يراقبوننى .. لا أحد يعرف .. كل إنسان مهدد فى هذا الزمن .. المهم أنك قد تورطت فى القصة حتى أذنيك ولم يعد من داع لسؤالك عما إذا كنت تريد الانضمام لنا ! »

بالفعل أدرك (سليم) فى هذه اللحظة بالذات أنه تورط بشدة ..

لقد صار من (الضوئيين) ..

أراد أو لم يرد !

* * *

7 ـ الضوئى الجديد ..

عندما تملك قدرة الإبصار يكون بوسعك أن تتخلص من جثة بسهولة ..

قام (سليم) باختلاس النظر خارج الدار فلم ير إلا المكفوفين العاديين يتحسسون طريقهم .. كل واحد منهم تنير عيناه بذلك البريق الأحمر المخيف المميز للرؤية الليلية ..

قام بأول إجراء مهم وهو أن أفرغ معدته .. لابد من أن تخرس آلام القرحة أولاً ، ودس فى فمه بعض أقراص المضغ التى لها طعم النعناع .. هكذا بدأ يشعر بالراحة ..

جرّ ضحيته التى لفظت أنفاسها الأخيرة خارج دار د. (مصطفى) .. ثم مشى بها بضعة أمتار إلى أن بلغ النيل .. قام بملء جيبى الفقيد بالحجارة ثم دفعه دفعًا إلى أن سقط فى المياه العميقة رمادية اللون ..

طش ش ش !

التفت الكثيرون عندما سمعوا صوت الارتطام بالماء .. لكنهم كانوا عاجزين بالطبع عن فهم مصدر الصوت .. هكذا واصلوا طريقهم ..

فى عالم من المكفوفين سوف يستغرق الأمر دهرًا إلى أن يجدوا الجثة ، ودهرًا إلى أن يعرفوا صاحبها ، ودهرًا إلى أن يشكوا فى الدكتور (مصطفى) .. فى هذا الوقت ستكون الأسماك قد قامت باللازم ..

من الغريب أنه قام بأول عملية قتل فى حياته ، هو الذى لم يؤذ ذبابة من قبل .. لكنه لم يمعن التفكير فى الأمر ، لأنه غرق فى عالم ثرى بكل التفاصيل البصرية التى حرم منها .. هكذا نسى الحقيقة : إنه لن يعود أبدًا كما كان ..

عندما عاد إلى د. (مصطفى) كان رأسه يزدحم بالأسئلة ..

لكنه كان يعرف شيئًا واحدًا يقينًا : هو لن يعود إلى العمى .. لقد وقع فى غرام البصر ، حيث كل شىء واضح ومكتمل ومنطقى ..

وتمنى لو يأخذ النظارات ليراها ابنه ليعرف معنى النور .. الوغد لا يصدق أن هناك شيئًا مثل البصر والألوان .. حان الوقت كى يعرف ..

لكن د. (مصطفى) سأله على الفور :

- « هل تخلصت من نظارات الرؤية الخاصة به ؟ »

قال فى ضيق :

- « لا طبعًا .. سوف أحتفظ بها... »

- « لا .. إنها نظارات حديثة .. هل ترى فيها قطعة نحاسية تشبه هوائى المذياع تخرج من العدسة اليمنى ؟ »

تفحص النظارة ثم غمغم :

- « نعم .. »

- « إذن هى كما توقعت .. هذا الطراز الحديث مضاد للفقد .. إنه يرسل إشارة رائحة بمكانه يتلقاها رجال الشرطة وتعرفها كلابهم ، وهى تقنية هدفها ألا تفقد نظارة واحدة .. معنى هذا أن هذه النظارة ستخبر رجال الشرطة بمكاننا .. »

قال (سليم) مغتاظًا :

ـ « برغم هذا أنت تملك واحدة .. تلك التى ألبسها الآن .. »

ـ « النظارة التى معى من الطراز العتيق حينما لم تكن هذه الإشارات قد عرفت بعد .. تخلص من النظارة يا ولدى حتى لا تندم .. وثق أننى أعرف ما أقول .. »

هكذا لم يعد أمامه سوى أن يخرج فى حذر ليلقى بالنظارة الثمينة فى مياه النيل ..

وحينما عاد من جديد لاهثًا قال له أستاذه العجوز :

ـ « أعدك أننا سنجد لك نظارة جديدة .. وحتى يأتى ذلك الحين احتفظ بنظارتى .. أنا قد استمتعت بالبصر فترة طويلة جدًا من حياتى منذ سرقت هذه النظارة .. لكن تذكر .. لا تتفاخر بها ولا تتباه بما اكتسبته من قوة على الآخرين .. لا تلعب دور (سوبرمان) لأن هؤلاء قادرون على العثور عليك وتدميرك.. »

كان الأمر أشبه بشعلة الثورة التى يتناقلها جيل من جيل .. فقط الشعلة فى حالتنا هذه مجرد نظارة رؤية ليلية ..

يبدو الأمر عجيبًا ، لكن ما الشيء الذى ظل كما هو فى هذا العالم ؟

* * *

هكذا صار (سليم) من الضونيين .. الحقيقة أنه لم يعرف ما المطلوب منه ولا مستقبل هذه الحركة .. فقط كان يخفى النظارة فى داره ، وأحيانًا يأخذها فى جولات ليلية حذرة .. لو رآه أحد يلبسها لكان الثمن هو جريمة قتل أخرى .. قتله أو قتل من رآه ..

وفى هذه المرات القليلة عرف أن تغيرات هائلة قد طرأت على البلاد لكن أحدًا لم يرها ..

لقد سرقت تماثيل فرعونية مهمة جدًا ووضعت مكانها هياكل تقنع من يتحسس .. متحف (محمد محمود خليل) بلا لوحة واحدة لكن هناك سطوحًا خشنة توحى لك بأن هذه لوحات .. بعض الناس لا يتقاضون راتبًا ولكن يتقاضون أوراقًا بيضاء تم ثنيها بشكل يوحى بأنها مئات الجنيهات ..

عند بعض الجزارين وجد كلابًا مسلوخة كاملة ، لكن لا أحد يعرف هذا سوى الجزار نفسه .. هناك بعض الأثرياء يملكون تلك النظارات الخاصة التى تتيح لهم نعمة البصر ، لكنهم ينكرون هذا طيلة الوقت .. وقد أتاحت لهم هذه المزية سبقًا هائلاً على الفقراء .. دعك من شبابهم الأثرياء الذين يتسللون بهذه النظارات إلى غرف الفتيات المكفوفات أو أماكن استبدال الثياب ..

الحقيقة أنه كاد يفضح نفسه أكثر من مرة ، لأنه حسب أن من يلبس هذه النظارات هو بالضرورة ضونى مثله .. ثم أدرك أن الضونيين لا يمشون فى الشوارع علانية بنظاراتهم .. دعك من أن نظاراتهم عتيقة الطراز دائمًا لا يمكن اقتفاء أثرها .. ثمة صفة مهمة أيضًا وتستحق أن نذكرها هنا : إنهم متأنقون يعنون بثيابهم وشعرهم .. كل الناس لا تعرف كيف تبدو من الخارج لكن هؤلاء يعرفون ..

وقد جازف ذات مرة وقدم نفسه لواحد من هؤلاء ..

الرجل الذى قدم نفسه له كان يقف جوار قضيب السكة الحديدية .. السكة الحديدية التى لم تعرف قطارات منذ دهور ..

كان الرجل نحيلاً فارع الطول فى الخمسين من عمره .. متأنقًا مصفف الشعر نظيفًا .. وكان يعد الفلنكات التى تمت سرقتها أو انتزعت من مكانها ..

دنا منه (سليم) فأجفل الرجل ..

بدا مظهرهما ككائنين فضائيين يتلاقيان بهذه الخوذات الغريبة التى تجعل رأسيهما أقرب إلى رءوس النمل ..

قال له مهدئًا من روعه :

ـ « لا تقلق .. أنا مثلك .. لست منهم .. أنا منكم .. »

نظر له الرجل فى تردد ثم قال :

ـ « مرحبًا بك .. أنا صرت ضونيًا منذ عام .. »

ـ « وأنا منذ عامين .. »

ـ « أنا محام .. »

ـ « وأنا جيولوجى .. طبعًا لا عمل لى .. أحيانًا أكسب رزقى إذ أراقب اللحوم عن طريق شمها وتحسسها.. »

وصمتا بعض الوقت وظلا يتبادلان النظرات ثم تبادلا العناوين وافترقا ..

محادثة بليغة جدًا ..

كان هذا أعمق تفاعل مع الضونيين مر به (سليم) .. وقد ملأه رضا ..

يومًا ما سوف نلتقى .. يومًا ما سوف نعرف ما ينبغى عمله ..

إنه الآن يعرف عشرة ضونيين على الأقل ..

* * *

8- سر ثقيل ..

على فراش الموت قال له د. (مصطفى) :

- « لا أتوقع أن تستمر الحياة على كوكب الأرض كثيرًا من بعدى .. لا يمكن لكوكب أن يعيش من دون نور شمس لأن الحياة العضوية سوف تذبل مع الوقت .. صحيح أن السيناريو أبطأ مما توقعت لكن هذا لا يغير شيئًا .. الكوكب مقضى عليه بالهلاك .. »

أمسك (سليم) يد أستاذه فى الظلام وهمس بصوت مبحوح :

- « ألا تتوقع أن تتقشع هذه السحابة مع الوقت ؟ »

- « ربما .. لكن انقراض البشرية سيكون أسرع .. »

ثم سعل بعض الوقت قبل أن يقول :

- « سوف تكون أعوامًا معدودة لكنى أتمنى أن تقضوها فى كرامة .. لهذا لابد من أن تتصل بالآخرين .. »

ابتسم (سليم) ابتسامة لم يرها الآخر لأنهما كانا معًا فى الظلام ، وقال :

- « لكن ما الجدوى ؟ فى عصر بلا طائرات لا يمكن التفكير فى مجرد الوصول إلى الهيمالايا .. »

- « هناك طائرتان فى العالم اليوم .. أنت لا تعرف هذا لكنها الحقيقة . يجب أن تمسك ببداية الخيط .. وهناك ما هو أهم .. »

ثم قرب أذنه من أذن تلميذه وهمس له بالسر ..

السر الذى يمكن أن يغير كل شىء ..

* * *

مر عامان على وفاة الأستاذ ..

(سليم) فى العقد الخامس من عمره .. لقد صار أكثر شعره أبيض وإن لم ير أحد هذا .. فقط يعرف الناس من خشونة صوته وإنهاكه صورة عامة عن سنه ..

(سليم) مثقل بسر رهيب ..

(سليم) يعرف كل الضونيين ، ويتابع أخبار إعدام بعضهم فى الصحف المنشورة بحروف (برايل) .. يعرف أنهم ليسوا حمقى .. ليسوا أقل ذكاء منه .. لقد سقطوا فى يد الشرطة ليس

لأنهم أغبياء مهملون وإنما لأن أجلهم حان .. لا شىء يحميه ولا شىء يمنع من أن يكون هو القادم ..

لكن الأمور تتساوى فى ذهنه ..

لقد تحمل بمهمة شاقة ، وعليه أن ينفذها ..

هكذا كان يقضى الوقت يجوب الشوارع .. أحيانًا يحمل النظارات وأحيانًا لا يحملها ..

فقط هو يراقب كل شىء ويحاول معرفة من يمكن أن يكون من الضونيين مثله .. كانت هناك منشورات بحروف (برايل) وقعت فى يده ذات مرة .. المنشورات تدعو الشباب إلى أن يكونوا من الضونيين .. أن يكون لهم الحق فى استعمال العينين .. لم يعرف قط من طبع هذه الأشياء ، لكنه تحمس لدى رؤيتها .. أعنى لدى تحسسها ..

كان يجوب شوارع العاصمة عندما حملته قدماه إلى ميدان التحرير فى ذلك اليوم .. كان هذا من الأيام القليلة التى جرؤ فيها على وضع النظارة كل هذه المسافة ..

فجأة أدرك أن هناك حركة غير عادية ..

الكلاب قد خرجت .. إنها تنبح باستمرار ، وهو يعرف هذا الطراز من العمليات الأمنية .. السيارات تندفع فى الشوارع .. السيارات والكلاب لا تخرج إلا لدى وجود جريمة شنعاء تتعلق بالنار أو النور .. هذه هى الأسباب الأهم التى تدفع هذه القوى للتحرك . هكذا أخفى النظارة فى عصبية تحت طيات ثيابه .. من الوارد جداً أن يراه رجال الشرطة الآن .. سوف يطلقون الرصاص ثم يتفاهمون ..

سمع أن هناك اثنين أشعلا النار وارتكبا جريمة تلويث الظلام فى أحد الفنادق ..

وعندما تجاسر على وضع النظارة من جديد رأى هذين الشابين المتماثلين اللذين يلبسان الأسمال ويتحسسان طريقهما ، ويبدو أنهما سمعا نداء المتحف المصرى فقررا أن يتواريا فيه ..

هكذا دخل المتحف مجازفاً متوقعاً فى أية لحظة أن يراه أحد لابسى نظارات الرؤية الليلية ..

رأى الشابين يقفان فى قاعة العمارنة .. رأى الشاب يشعل القداحة . إنه ساذج لا يدرى بحق أية جريمة ارتكبها ..

من الغريب أن هذه النار تختلف عن نار عالمه .. إنها نار قوية قادرة على أن تكشف أشياء ، بينما نارهم ـ لو وجدت ـ واهنة ضعيفة لا تمنح الدفء ولا النور ..

إنهما يتصرفان كأنهما لا ينتميان لهذا العالم ..

بل هذا صحيح .. بالفعل هما لا ينتميان لهذا العالم ..

وارتجف ..

الآن فقط ولهب القداحة يضيء القاعة يتذكر ما قاله أستاذه :

ـ « أنا لا أؤمن بنبوءات العرافين وكل هذا الهراء ، لكن هناك إشاعة قوية يتناقلها الضوئيون عن شابين .. ذكر وأنثى .. متشابهين كأنهما أخوان .. قادمين من عالم آخر .. يقولون إنهما سوف يقضيان على سلطة القومندان .. هذا كلام فارغ فى رأيى .. لا أحد يقدر على تدمير القومندان سوى أبناء هذا العالم وهذه اللحظة .. »

كان هذا قبل أن يصارحه بالسر الأكثر خطورة ..

على كل حال كان الأمر قد انتهى الآن لأن الغريبين رأياه ..

وأدرك أنه يجب أن يقدم لهما يد المساعدة قبل أن يضيعا ..

سوف يأخذهما معه ويحميهما ..

والأهم .. يجب أن يعرف من هما حقًا ومن أين جاءا ..

★ ★ ★

الجزء الثالث

القومندان

يا مدينة الوهم
تحت الضباب الأسمر .. ضباب فجر الشتاء ..
على جسر لندن تدفق جمع غفير ..
لكثرته نسيت أن الموت حصد جمعًا غفيرًا
وصعدت آهات قصيرة كل حين طويل
وثبّت كل بصره أمام خطاه ..
على التل تدفق الجمع ثم هبط إلى شارع الملك ويليام ..
هناك رأيت رجلاً أعرفه فاستوقفته صائحًا:
ـ « أي (ستتسون) !
يا من كنت معي على السفائن في ميلاي ..
هل بدأت الخضرة تنبت من الجثة التي زرعتها في حديقتك العام الماضي ؟
ألا فلتطرد الكلب بعيدًا عن جنباتها
وإلا نبش بأظفاره فأخرج الجثة من جديد .. »
من قصيدة الأرض الخراب لـ (ت.س. إليوت)
ترجمة د. (لويس عوض)

1 ـ أسطورة ..

يقول (سليم) كالحالم :

ـ « أرض الظلام ! قرأت عنها فى كتب الأساطير .. لقد جربت أن أقرأ مستعملاً هذه النظارات برغم أنها ترهق البصر .. بالتأكيد ليست الطريقة المثلى للقراءة ، لكنى وجدت بعض الكتب القديمة ورحت أتصفحها للمرة الأولى من دون طريقة (برايل) .. ثمة كاتب أمريكى أصيب بفقدان البصر من ثم راح يقرأ بطريقة (برايل) ، ويقول إن المزية المهمة لهذه الطريقة هى أنك لا تحتاج لإخراج يدك الدافئة من تحت الغطاء لقلب الصفحة ! هذه هى المزية الوحيدة فعلاً ، وفيما عدا هذا أوشكت أن أرقص طربًا عندما رأيت الحروف المكتوبة .. ألا بورك فى حرف اللام عندما يلتقى مع الألف فى عناق ساحر كبجعة أسطورية .. ألا بورك فى لفة الهاء السحرية .. ألا بورك فى التقاء السين بالميم .. دعك من روعة حرف الـ Z المتلوى المصمم على التواثه ، وكيف تفتح الـ W ذراعيها للسماء بينما تفضل الـ M أن تزحف على الأرض .. قضيت الكثير من الليالى

أطالع الكتب .. وبينها وجدت أسطورة أرض يغمرها ظلام شامل .. أرض تقع فى (جورجيا) .. فى غابات (أبخازيا) ..

من هذه الأرض المظلمة تسمع أصوات الناس .. أناس لم يرهم أحد من قبل ولا يعرف كيف يبدون .. يقال إنهم أحفاد ملك الفرس (سابور) الذى سجن أتباعه للأبد فى هذه الأرض .. لقد ذهب إلى هذه البلاد كى يضطهد المسيحيين فدعوا الله كى ينتقم منه .. هكذا وجد أنه وأتباعه سجناء فى ظلمة لا يمكن اختراقها ..

ثم يصل الإسكندر الأكبر ويرغب فى اختراق هذه الظلمات أثناء بحثه عن ينبوع الخلود .. لكنه يعجز عن اختراقها بينما ينجح خادمه (أندرياس) فى اجتياز الظلمات ، ويشرب من نبع الخلود ..

هكذا عرف القدماء أرض الظلمات ..

فى الأساطير الإغريقية مملكة الظلمات هى مملكة الموتى (هيدز) التى يحكمها (بلوتو) الرهيب ، وخادمه (شارون) .. على الموتى كى يبلغوا هذه المملكة أن يعبروا نهر (ستيكس) الذى يصل بين عالم الأحياء وعالم الموتى ..

هكذا عرف القدماء أرض الظلمات .. »

* * *

انتهى (سليم) من قصته التى حكاها فى الظلام الدامس ..

فما أن فرغ حتى مددت يدى إلى القداحة وأشعلتها ..

شليك .. شليك !

على الفور عم النور المكان .. النور الذى صارت له قيمة عظمى بعد هذه القصة .. برغم أنه ليس النور الذى أصبو إليه .. إنه نور أصفر رقراق كثير الظلال ..

الآن أرى وجهه وأدرك أنه رجل وقور فى العقد الخامس من العمر .. أشيب الشعر .. وجهه مفعم بالتجاعيد لكن جسده يتمتع بقوة لا بأس بها .. لكن ما أثار قلقى هو شىء آخر لم أستطع معرفة ما هو ..

قال لى باسمًا بزاوية فمه :

ـ « لاحظ أن البصاصين فى كل مكان .. وحساسية عيون البشر لا تصدق .. عيون جائعة إلى النور متعطشة له .. يمكن

لهذه العيون أن تشم هذا الضوء الخافت عبر خصاص النافذة على بعد مائة متر .. »

أطفأت القداحة بسرعة وقد تملكنى الرعب . من جديد يسيطر الظلام على كل شىء وتتراجع المعرفة اليقينية ، لتحل مكانها معرفة تخمينية تعتمد على الأصوات .. لا أثق فى أننى عرفت شيئاً عن أى شخص ما لم أر عينيه ..

سألته فى الظلام الذى جعل تنفسى عسيرًا :

ـ « هل حقًا تعتقد أن تلك النبوءة التى تحدثت عن غريبين متشابهين حقيقية ؟ »

قال فى الظلام الخاص به :

ـ « لا أعرف .. لم أعتد تصديق النبوءات قط .. لكنى أؤمن بالقدر .. والقدر قد ساقكما لهذا العالم لغرض ما .. لا أعرف من أين جئتما لكنى أشعر بأنكما لا تنتميان هنا.. »

ـ « لكننا مجرد طفلين مذعورين لا نعرف أى شىء .. لا نعرف إلى أين نذهب ولا ماذا نفعل.. »

ـ « كلنا ذات الشخص .. »

ثم قال فى هدوء :

ـ « منذ هذه اللحظة أنتما ضيفان عندى .. لا حاجة للإقامة فى الفنادق ولا تحسس الطرقات ولا غش الأوراق المالية .. أنا مسئول عنكما .. لكنى أقترح أن .. »

وبدا فى صوته بعض الحرج :

ـ « تبدلا هذه الثياب التى أفسدت جو داري.. »

ـ « ليست ثيابنا .. لقد حصلنا عليها من بائع صحف .. »

ـ « أعرف .. لقد كنت أراقبكما .. »

هتفت (سلمى) فى جزع :

ـ « تراقبنا ونحن نبدلها ؟ لقد حسبت أن .. »

لم يعلق .. وقد كنا نحسب أنه لا أحد يرانا ..

فقط قال بلهجة عملية :

ـ « الاستحمام ثم تبديل الثياب .. بعد هذا نعرف ما ينبغى عمله. .. »

وتثاءب فى قوة .. وقال :

ـ « لقد توغل الليل .. »

ـ « هل ما زلت تستعمل لفظة ليل ؟ »

ـ « لم أكف عن استعمال لفظة (ليل) قط .. ما أحلم به هو أن أعود لاستعمال لفظة (نهار) .. »

قالت (سلمى) بعد قليل :

ـ « لاحظنا عندما توهج النور أنك تبتسم بزاوية فمك اليسرى .. هل أنت مصاب بقرحة معدية ؟ »

ساد الصمت وبدا أنه يفكر فيما إذا كنا نمزح أو نسخر منه ، ثم قال :

ـ « هل هناك علاقة طبية بين العرضين ؟ »

ـ « وتحب القطط الصغيرة وقراءة الصحف فى الحمام .. عندما كانت القراءة ممكنة طبعًا ؟ »

ـ « نعم .. لكنى لا أفهم ما الذى .. »

قلت أنا :

ـ « الأمر واضح .. (سليم) هو أقرب اسم لـ (سالم) و(سلمى) .. إن شرح الموضوع يطول لكنى دعنى أؤكد لك أننا أقرب إليك مما تتصور .. سوف نتفاهم جدًا ! »

* * *

2 ـ فلنعـــدْ !

كنت فى الحمام عندما سمعت الصرخة الأنثوية بالخارج ..

لم تكن صرخة (سلمى) لكنى على الأقل أعرف أنها صرخة أنثى تذبح أو تنتزع عيناها .. تحسست فى الظلام حتى وجدت من الثياب ما يستر عورتى .. سقط باقى الثياب على الأرض فغرق فى البلل .. أطلقت سبة .. وهنا انزلقت فى المغطس وأنقذت رأسى بمعجزة من أن يتهشم .. كانت أمى تقول إن الشياطين تحل بمن يجرؤ على الاستحمام فى الظلام .. عامة كانت تعتبر الحمام بقعة مخصصة للاستحواذ لا للنظافة .. ترى ماذا تقول عن كوكب كامل يضطر أفراده إلى الاستحمام فى الظلام ؟ هذه هى (الدهولة) حقًا واغفر لى هذا التعبير، فلا شىء يعبر عن (الدهولة) إلا لفظ (دهولة) ..

هرعت إلى الخارج أتحسس طريقى فاصطدمت بشخص أعتقد أنه (سليم) .. وسمعت صوته يقول :

ـ « لا تقلق .. لكن .. أليست القداحة معك ؟ »

مددت يدى وأشعلت القداحة للحظة ..

على الأرض كانت سيدة فى عقدها الخامس قد شاب شعرها وانتفش ، وقد أراحت (سلمى) رأسها على فخذيها .. وكانت تأتى بحركات تذكرك بمرضى الصرع والزبد يخرج من شدقيها ، وقد مزقت بأظفارها منبت عنقها .. كأنها فى حالة هستيرية متقدمة .. تتنفس بسرعة وعمق منذرة بتحويل دمها إلى محلول قلوى ..

فما إن رأت النور حتى بدت على وجهها ضحكة بلهاء كأنها طفل يرى الشيكولاته للمرة الأولى فى حياته ..

قال (سليم) :

ـ « اهدئى يا عزيزتى .. اهدئى يا فاتن .. كل شىء على ما يرام .. »

همستْ فى انبهار بصوت كأنه الفحيح :

ـ « ضوء ! »

ـ « نعم .. أنت بخير .. والآن سيسود الظلام من جديد .. »

بدأت تهدأ قليلاً وفهمت من تنفسها أنها نامت ..

قال لى فى الظلام :

ـ « فاتن .. زوجتى .. أولئك الذين عرفوا النور فى شبابهم يصابون بنوبات جنون كهذه من حين لآخر لأنهم يشعرون بأن الظلام يجثم على أنفاسهم ويخنقهم .. إنهم لا يصدقون .. أما من ولدوا بعد الظلام فلا يمرون بأعراض كهذه .. »

قلت :

ـ « هذا طبيعى .. قارن بين آلام السيدة التى فقدت طفلها والسيدة التى لم تنجب قط .. الثانية لم تملك قط ما تخسره .. »

وهكذا هدأت الأمور قليلاً .. أفهم تماماً ما تشعر به هذه البائسة .. لولا القداحة فى جيبى لجننت منذ زمن ..

لا أعرف إن كان بوسعى أن أثق بـ (سليم) أم لا ، لكنى أرجح أنه فعلاً نسختنا الجينية هنا .. دعك من أن ما سكبه عندى من أسرار كفيل بأن يفتك به .. هو لن يجازف إلى هذا الحد .. لو وقعت فى يد الشرطة لكانت هذه نهايته ..

* * *

فى ثلاثة الأيام التالية عرفت الكثير عن هذا العالم .. الآن أفهم التفاصيل كلها .. كيف يأكلون ويشربون .. اعتمادهم التام على أجهزة المذياع التى تعمل بخلايا بيولوجية ..

فهمت أن كل الحكومات تؤدى عملها كما كانت ، لكنها ملزمة بالولاء للقومندان الذى يعتبر القائد الأعظم .. إن ما يملكه من صواريخ نووية يجعل الطاعة واجبة له خاصة أنه يرى وهم لا يرون .. أجهزة الإبصار التى يملكها رجال الشرطة مرتبطة بإشارة إلكترونية يومية تجعلها تؤدى عملها .. هذا يجعله مسيطرًا عليهم ويمكنه أن يعيدهم لحالة العمى إذا شعر بأى تمرد .. مهمة الشرطة - بالإضافة لعملها التقليدى - هو ضبط جريمة التعامل مع النار أو النور ، وتضاف للحكومات مهمة تحصيل ضرائب عالية تسدد إلى القومندان .. أعتقد أنه يمتص جزءًا من ثروات كل بلدان العالم ..

يظل التحليق محرمًا قرب مقره .. على كل حال انتهى الطيران من هذا العالم تمامًا .. عالم بلا طاقة .. عالم لا يبصر .. لا يمكن أن تكون له إرادة مستقلة ..

يبدو الوضع يائسًا .. لكن - كأية ثورة - كانت الجذوة باقية تحت الرماد تنتظر لحظة النهوض .. لا أعرف كيف ولا متى لكنها قادمة ..

وقالت لى (سلمى) :

- « أعتقد أننا لن نقدم شيئًا هنا .. لقد حان الوقت كى نرحل .. »

- « أنت عبقرية .. قلت لك إننى عرفت فيما مضى فتاة تشبهنى كانت تصمم على البقاء حتى اللحظة الأخيرة .. »

- « لا أعتقد أننا سنفيد هؤلاء القوم .. إننى مستعدة لمواجهة كل شىء بشرط أن أراه .. هذا الظلام قد أرهقنى وعذبنى بحق .. »

ثم بعد تفكير قالت :

- « لكن لا تصارح (سليم) بنيتنا .. إن عنده أملاً فى أن ننقذ عالمه .. تلك النبوءة اللعينة .. لو أخبرناه بفرصتنا فى الرحيل لبذل كل جهد ممكن كى يمنعنا .. »

هكذا عندما سمعت صوت (سليم) فى الظلام .. وكان يكلم ابنه ، قلت بصوت عال :

ـ « (سليم) .. كان معنا جهاز طبى مهم عندما جئنا هنا .. لقد أخذه منا ضابط فى قسم شرطة (....) .. ونحن راغبان فى استرداده .. »

فكر حينًا ثم قال :

ـ « هم م .. هل حقًا ترغبان فى استرداده ؟ هذا غريب .. هل تعرفان اسم الضابط ؟ »

ـ « لا .. ولكنه رئيس المباحث هناك و .. »

* * *

فجأة سمعت ذلك الصوت الخشن يصيح :

ـ « من أنتما ؟؟؟؟ (نصار) ! (نصار) !! »

ثم سمعت صوت رجل يتكلم بلهجة ريفية قليلاً :

ـ « أوامرك يا (محسن) باشا .. »

ـ « من هذان ؟ وكيف مرا ؟ ألم تسمع صوت الخطوات ؟ »

بدا لى الأمر مألوفًا .. لكن هذا الظلام الدامس ..

* * *

قلت بصوت عال :

ـ « اسمه (محسن) بك أو باشا .. »

ـ « هذا يسهل الأمور .. يمكن أن آخذكما هناك حيث تحاولان إقناعه .. أنتما تعرفان مواصفات الجهاز طبعًا .. »

قالت (سلمى) :

ـ « المشكلة هى أننا نخشى أن تكون أوصافنا عند الشرطة بعدما ارتكبنا جريمة النار .. »

ضحك كثيرًا ، وقال :

ـ « أوصاف ؟ أنت متفائلة حقًا .. الشرطة لا تعرف سوى أنكما اثنان .. لا أعتقد أن هذا كاف لاعتقالكما .. غدًا آخذكما إلى هناك .. لكن تذكرا ألا تأخذا القداحة معكما .. معنى هذا أن تموتا داخل القسم ذاته .. »

* * *

3ـ الجهــاز ..

على باب قسم الشرطة وسط الذين يدفعوننا فى كل اتجاه قال (سليم) :

ـ « سوف أبقى هنا .. كونا ليقين سريعى البديهة .. »

مضينا نتحسس طريقنا ونسأل كل من نصطدم به .. مكفوفان يســألان مجموعــة من المكفوفين .. رحنا نشق الزحام نحو الغرفة التى بدأت منها المغامرة .. بدأت منها كل مغامرة فى الواقــع ..

فجأة همست (سلمى) :

ـ « كلاب ! »

تصلبت وأصغيت .. بالفعل هناك كلاب قريبــة .. كلاب تنبح متحفزة منذرة بالويل .. وشعرت بالتوتر يزحف على مؤخرة عنقى .. ماذا لو كانت هذه بعينها هى الكلاب التى ..؟ ماذا لو كانت لم تنس رائحتنا بعد ؟ إنهـا تنبح فى غضب .. فلماذا تنبح فى غضب ؟ وتوقعت أن أجد تلك الأنياب تطبق على ساقى أو عنقى فى أية لحظة ..

تظاهرنا بأننا لا نخشى شيئاً .. كلاب تطبق على عنقك ؟ هذه تفاهات !

وعلى الباب شعرت بمـن يضـع كفه فـى طريقى ليمنعنـى من الاستمرار ..

قلت هامسًا :

ـ « (محسن) بك .. نريد لقاءه.. »

جاء صوت (نصار) الحارس الواقف على الباب الذى صرت أحفظه وهو يتساءل :

ـ « والسبب ؟ »

ـ « إنه احتفظ بجهاز طبى يخصنـا .. كـان هذا منذ أسبوع تقريبًا .. »

ـ « انتظر لحظة .. »

مـاذا أنتظره بـالضبط ؟ وفجـأة شـعرت بقطعة صلصال بـاردة تلتصق بأذنى ..

لقد صار الأمر خطرًا .. إننى أترك بصماتى فى كل صوب ، ولو كانت لديهم بصمات الفندق فإن أمرنا قد انتهى فعلاً ..

لم يكن عندى سوى حل واحد .. (سلمى) تعقص شعرها فلن توجد خصلات مزعجة .. مددت يدى متظاهرًا بالخرق لأنتزع قطعة الصلصال من يد (نصار) ، ومن ثم حولتها إلى عجين ..

تراجعت فى الظلام خطوة لأجعل (سلمى) تقف فى موضعى بالضبط .. بينما صاح (نصار) بلهجته الريفية المغتاظة :

ـ « هل أنت غبى ؟ لا تمد يدك على القالب ! »

ـ « معذرة .. أنت فاجأتنى .. »

ومرت ثانية أخرى .. لابد أنه ثبت قالبًا جديدًا على أذن (سلمى) .. ثم سمعت صوته يصيح :

ـ « انتظرا هنا .. »

ما أن توارى الصوت حتى سمعت (سلمى) تهتف فى غيظ :

ـ « ما هذا الشيء المثير للاشمئزاز ؟ »

ـ « صلصال طبعًا .. وكان هذا هو الحل الوحيد .. أن أستبدل ببصمات أذنى بصمات أذنك .. ليست لديهم هذه الأخيرة .. لن أجازف بأن يخرج من يقول إنهم عرفوا سرنا .. من حسن الحظ أنك لم تملئى الدنيا صراخًا .. »

جاء صوت (نصار) الخشن يقول :

ـ « ادخلا .. »

نحن الآن فى غرفة رئيس المباحث .. لا أرى شيئًا لكنها باردة جدًا ككل شىء هنا .. أسمع صوته يقول فى غلظة :

ـ « ماذا تريدان ؟ »

عدت أحكى القصة الملفقة عن جهاز تنظيم الضربات الذى تعتمد عليه حياتى كلها .. وطلبت منه أن يعيده لى .. يبدو أننى حكيت هذه القصة ألفى مرة حتى اليوم .. سمعت صوت مكتبه يفتح وسمعته يقول :

ـ « لم أعرف ما هو .. لا أحد يعرف .. لكن ما دمت بحاجة له سأعيده لك .. »

هذه الحيلة لا تفشل على الأرجح .. لا أحد يرغب فى أن يتسبب فى موتى ما دام الجهاز غير مفيد وغير ضار .. لا أحد يرغب فى مجازفة كهذه ..

ـ « بالمناسبة .. لاحظت أن قالب أذنك صغير كآذان الفتيات .. هل أنت صغير الحجم ؟ »

هكذا فهمت أنه لا يلبس نظارات رؤية ليلية .. غريب أن يمارس ضابط المباحث عمله وهو عاجز عن تفحص المتهمين فى شك أو إلقاء نظرات نارية على الناس ..

قلت فى تواضع مرح :

ـ « صغر الحجم وراثى فى أسرتنا .. »

وشعرت بالجهاز الثمين فى يدى .. تذكرة العودة التى ضاعت منا واسترددناها .. تذكرة العودة إلى عوالم مضيئة فيها نور وكتب وشمس ..

صحت بلسان متهدج وأنا أقاوم الرقص طربًا :

ـ « شكرًا .. شكرًا على تفهمك.. »

فى ضيق (أمنى) قال :

ـ « لا أريد أن أسمعكما هنا ثانية.. »

هذا هو البديل العصرى لعبارة (لا أريد أن أراكما هنا ثانية) ..

وتحسسنا طريقنا إلى الخارج ، واعتصرت يدها وهمست :

ـ « ما رأيك ؟ هنا والآن ؟ »

قالت هامسة :

ـ « لابد لى من الرؤية .. لا أحفظ أماكن الأزرار .. فلننتظر حتى نعود إلى الدار .. »

وعلى الباب مددت يدى وصحت :

ـ « (سليم) ! »

فجاءنى صوته :

ـ « أنا هنا .. سبع أم ..؟ »

ـ « سبع .. لكنه سبع بحاجة إلى قبس ضوء خفيف .. »

* * *

4- القلعــــة ..

انتهى الحفل فى ساعة مبكرة من صباح الاثنين ..

فرغت الراقصات الإيطاليات من أداء فقرتهن فهرعن وراء الكواليس .. على حين انتشر الخدم الهنود هنا وهناك يقودون الضيوف إلى حجراتهم ..

كانت (باولا ماريانتشى) الراقصة الإيطالية ذات العشرين ربيعًا تتوق إلى تدخين لفافة تبغ لأول مرة فى حياتها ؛ لذا اتجهت إلى الشرفة المفتوحة ووقفت ترمق العالم أمامها ..

كان الفجر يقترب كما قلنا لكنها لم تستطع رؤية نذره الأولى ، لأن الإضاءة الشمسية الصناعية فى الشرفة تجعل هذا مستحيلاً .. قيل لها إن هذه هى الطريقة الوحيدة كى لا تتجمد لأنها فى أعلى بقعة من العالم .. كل القاعات تتمتع بتدفئة ممتازة ، بينما الشرفات وساحات الرياضة تضاء بشمس صناعية .. هذه القلعة تستهلك وقودًا كان يكفى دولة صغيرة منذ بضعة أعوام ..

قالوا لها إن التنفس صعب فى الشرفة وإن عليها أن تضع قناع الأكسجين .. لكنها لا تشعر بأن هناك مشكلة .. من العسير نوعًا أن تدخن بقناع أكسجين على وجهها ..

أشعلت لفافة التبغ بالقداحة التى أعطاها إياها الجنرال (كريلوف) فى بداية السهرة .. شعور مذهل هو أن تستطيع أن تصنع النار بأداة صغيرة كهذه .. كانت (باولا) فى بلادها مدمنة تبغ ، لكنها تمضغه كما يفعل الجميع ..

سمعت صوت أحدهم قادمًا ، ولم تحتج إلى أن تلتفت لترى من .. منذ بداية الأمسية لم يتركها الجنرال (كريلوف) لحظة .. هذه هى مأساة المرأة الجميلة .. إنها لا تستطيع أن تظل وحدها لحظة واحدة ..

الجنرال (كريلوف) لا يحمل سمات العسكريين .. إنه قصير القامة أصلع .. لابد أنه يعانى مركب الرجل صغير الحجم ، لأنه يتصنع خشونة معينة فى صوته ويحاول أن يبدو عدوانيًا مقتحمًا ..

فى يديه كأسان من الفودكا ، ومن الواضح أنه يريد أن تشرب معه ..

ـ « هل تستمتعين بمطلع الفجر يا عزيزتى ؟ »

كان يتكلم الإنجليزية الرديئة وهى اللغة الرسمية للكلام فى برج (بابل) هذا ..هزت رأسها أن نعم وهى تتمنى لو أنه يتركها قليلاً ..

ناولها كأسًا ثم رفع كأسه بحركة تمثيلية ، وقال :

ـ « نخب أجمل عينين زارتا قلعة (القومندان) .. »

وجرع كأسه مرة واحدة ثم طوحها وراء كتفه كعادة الروس .. لم تسمع من قبل من يقول إن عينيها جميلتان .. السبب هو أن أحدًا لم يرهما من قبل ..

كانت هى ترمق المنظر من الشرفة .. شعور غريب بحق أن تجد نفسك فوق الغيوم .. الغيوم تبدو لها كأنها أرض يمكن أن تترجل وتمشى فوقها .. أرض فيها جبال وهضاب ووديان ..

أما ما يدير الرأس بحق فهو أنها فوق مستوى الظلام ذاته ..

قال الجنرال :

ـ « نعم .. أعرف ما تفكرين فيه .. نحن هنا فوق السحابة السوداء التى يغرق فيها البشر .. نحن فوق مستوى الظلام

والليل الكثيف .. لا يفصلنا شيء عن ضوء الشمس .. لكننا ندفع ثمنًا غاليًا هو قلة الأكسجين والبرد القارس .. »

دوى هدير محرك ..

واستطاعت أن ترى الطائرة التى جاءت بها والفرقة تطير فوق الجبال مبتعدة ..

سألته :

ـ « كيف يرى طريقه للهبوط ؟ »

ـ « تقصدين تحت مستوى السحابة السوداء ؟ بالطبع يعتمد على أجهزة الرؤية فى الظلام .. يستعمل وقودًا بيولوجيًا خاصًا لأن البترول لم تعد له قيمة .. »

كانت ترمش بعينيها غير مصدقة ..

للمرة الأولى منذ عشرين عامًا تعرف معنى البصر .. تستعمل هذين العضوين الموجودين تحت جبهتها .. وقد جعلها هذا تجن تمامًا .. راحت ترقص كالمخابيل أربع ساعات .. وكانت الراقصات اللاتى جنن هنا من قبل يتبادلن النظرات الضاحكة .. هذه أعراض الإبصار التى مرت بهن جميعًا ..

لقد كانت الضربة قوية .. فجأة استعملت عينيها وصارت تعرف معنى كلمة (نور) .. فجأة هى فوق قمة العالم .. فجأة هى فوق الغمامة ذاتها .. فوق الظلام .. فجأة هى فى قصر القومندان الذى تسمع عنه منذ جاءت إلى العالم ..

كل هذا أفقدها صوابها فعلاً ، فصارت على استعداد لعمل أى شىء كى يُسمح لها بأن تبقى هنا ..

سألت الجنرال دون أن تنظر له :

ـ « هل رأيت القومندان من قبل ؟ »

قال فى ارتباك :

ـ « مرتين لا أكثر .. ليس مولعًا بالظهور .. »

ـ « كيف يبدو ؟ »

ـ « إنه راهب من رهبان التبت .. يبدو مثل الدلاى لاما .. »

طبعًا لم تكن قد رأت صورة الدلاى لاما .. لم تر أية صورة لأى شخص فى حياتها ..

ـ « لكنكم هنا منذ زمن .. »

ـ « نحن قادته .. ونحن من يدير كل شىء ونبلغه بالتفاصيل .. »

فجأة حلقت طائرة أخرى فوق الرءوس .. وسرعان ما توارت وسط الغيوم السود ..

سألته فى دهشة :

ـ « ما سر هذا النشاط ؟ »

ـ « لا يوجد سبب معين .. فقط هناك نبوءة .. تعرفين أن هؤلاء القادة جميعًا يؤمنون بكلام المتنبئين منذ عهد (هتلر) حتى اليوم .. النبوءة التى وصل لها القومندان هى .. »

وفكر قليلاً ثم أردف :

ـ « لا أدرى لماذا أحكى لك كل هذا . لكن لا ضرر منه على كل حال فجميع النبوءات هراء .. النبوءة تتحدث عن شخصين متشابهين تمامًا أحدهما ذكر والآخر أنثى ، وقد جاءا من عالم آخر .. هذان سوف يعيدان معنى النور لهذا الكوكب التعس .. عامة يشعر القومندان بقلق من هذه النبوءة ، ودوريات الأمن

نشطة أكثر من أى وقت آخر . فى الحقيقة لا أحب أن أرى رجلاً عظيمًا مثل القومندان يضيع وقته فى هذا السخف .. »

ثم أشار إلى الأفق وهتف :

ـ « الآن ترين اللمسات الأولى للفجر .. الشمس تظهر فى الأفق الشرقى .. سوف يخيل لك أنها تتحرك .. الحقيقة أن الأرض هى التى تتحرك .. سوف يحمر الأفق وترين مشهدًا لن تنسيه .. »

يتكلم بفخر كأنه هو المسئول عن هذا المشهد الجليل ..

كان قلبها يخفق وصدرها يعلو ويهبط ..

قال لها الجنرال :

ـ « هناك كلمة تسمعينها لأول مرة .. نقولها فى ظروف كهذه (صباح الخير) .. »

نظرت له فى عدم فهم فعاد يكرر الكلمة :

ـ « صباح الخير .. صباح جميل .. جود مورننج .. بونجور .. جوتن مورجن .. بونجورنو بلغتك .. داو بروى أوترا بلغتى .. هذا هو الصباح لذا تتمنين لأصدقائك أن يكون جميلاً.. »

أول صباح تراه فى حياتها ..

هذه لحظات أسطورية .. سوف تموت وهى لا تحمل من كنوز إلا هذه الذكريات ..

تصوروا أن المسنين يزعمون أن هذا المشهد كان يوميًا ! هى التى لا تفهم أصلاً معنى كلمة (مشهد) .. يقولون إنه كان مجانيًا .. هبة مجانية من الخالق الأعظم .. كيف ؟ لو أن المرء ذبح نفسه الآن فلن يكون ثمنًا كافيًا لمشهد كهذا ..

انفجرت في البكاء ..

قال الجنرال فى وقار :

ـ « نعم .. نعم .. أعرف ما تشعرين به .. هذا البهاء لنا وحدنا .. كان من حق الجميع فصار من حق الصفوة .. إننا سادة العالم بلا مبالغة .. ألا يدير هذا رأسك ؟ »

كان فيل أزرق كبير يطير فى الهواء نحوها فتراجعت فى ذعر .. ورأته يدخل كأسها ليذوب ..

هتفت غير مصدقة :

ـ « الفيل الأزرق .. لقد .. »

قال الجنرال :

ـ « آه .. هذه علامات نقص الأكسجين وقد أثرت على الدماغ .. أرى أنه من الأفضل أن ندخل الآن .. إن تركيز الأكسجين بالداخل عال .. »

قررت بالفعل أن تدخل قبل أن ينزلق لسانها بفعل هلاوس نقص الأكسجين وتتكلم أكثر من اللازم ..

لو عرف الجنرال أنها من الضونيين وأنها تتجسس على القلعة ، فلسوف يلوم نفسه ألف مرة على كل هذه الثرثرة الحمقاء .. كل الرجال يتحولون إلى بلهاء أمام فتاة جميلة .. لكنهم عندما يفيقون يتحولون إلى وحوش ..

وهى لا ترغب فى أن ترى الجنرال يتحول من أبله إلى وحش ..

* * *

5ـ نشوة النيران ..

سألنى (سليم) وهو يقودنى إلى داخل الشقة :

ـ « لماذا تحتاج إلى نور ؟ »

قلت بلهجة عارضة :

ـ « لا يمكن تشغيل الجهاز فى الظلام .. هذه عملية دقيقة .. »

ـ « سأحضر لك القداحة حالاً .. »

مددت يدى أمسك بيد (سلمى) .. سوف تكون ألعوبة قاسية مع (سليم) عندما نتلاشى أمام عينه . هو الذى علق علينا آمالاً كبرى ، لكن لا يوجد حل آخر .. هذا العالم لا يغرى إلا بالهرب ..

بعد قليل سمعت صوته يصيح :

ـ « لا أجدها .. هل أخذتها ؟ »

ـ « بالطبع لا .. »

ـ « إذن هى سرقت ! »

كنا على وشك تبادل الاتهامات واللوم عندما سمعنا صوت الصراخ من الخارج ..

تحسسنا طريقنا إلى مصدر الضوضاء ، وعندما شممنا رائحة الهواء الطلق لم يكن هناك من داع للمزيد من تحسس الطريق .. لقد كان هناك ضوء فعلاً .. ضوء خافت واهن متراقص لكنه كاف كى ترى.

وشهق (سليم) فى رعب :

ـ « (فاتن) ! »

* * *

كانت تقف هناك وحولها زحام من الناس المذعورين الذين يحجبون أعينهم بأيديهم ، بينما هى فى مركز الدائرة كأنها حاو يقدم فقرة مثيرة .. كانت القداحة فى يدها لكنها كانت قد أشعلت شمعة كبيرة عملاقة .. شمعة تمسكها فى ذات اليد التى تمسك بها القداحة ، بينما اليد الأخرى تمتد بصفحات من كتاب تشعلها من اللهب ثم تلقيها أرضًا ..

يتراجعون فى رعب غير مصدقين ..

لو كانت النار جريمة فهم لم يروا سفاحًا بهذه اللامبالاة ، ولو كانت النار كفرًا فهم لم يروا فاسقًا بهذه الجرأة ..

بالطبع كان النور الذى تصنعه واهنًا صغيرًا لكنه الضوء الوحيد لذا بدا متضخمًا .. وسل عن هذا أى مخرج مسرح عرائس .. إن طاقة النور التى لا تتجاوز حجم صفحة الجريدة تتحول فى الظلام الدامس إلى مسرح كامل ..

تشعل النار فى الأوراق وتطوح بها فى كل صوب فى الشارع وهى تصيح :

ـ « هذا هو النور ! تلك هى النار ! هل ترون يا حمقى ؟ هذا هو ما حرمتم منه ! استمتعوا بها ! انظروا لها ! دعوها تحرقكم وتحرق غباءكم وتخبُّطكم وجبنكم ! هل ترون كيف تبدون ؟ هل ترون شارعكم ومدينتكم ؟ كل ما عشتم تتحسسونه ولا تعرفون عنه إلا ما تتيحه حاسة اللمس .. واللمس خادع يا أغبياء ! هلموا ! »

صرخ (سليم) وهو يغطى عينه :

ـ « (فاتن) يا بلهاء ! كفى عن هذا ! »

مددت يدى أمنعه من اللحاق بها وهتفت :

ـ « لا تكن غبيًا ! »

من جديد تشعل المزيد من الأوراق وتطوح بها ..

ـ « هلموا يا حمقى .. متعوا أعينكم قبل أن تموتوا ! »

كان علىّ أن أعرف هذا .. ليس من الحكمة أن تترك القداحة مع امرأة أصيبت بحالة هستيريا بسبب الظلام .. لقد رأت القداحة وتذكرت نشوة النور .. بعد هذا تركناها معها .. إن لم يكن هذا هو الغباء بعينه ، فما اسمه ؟

ومن بعيد سمعت صوت سرينة سيارات الشرطة ..

ابتعدى يا حمقاء !

كان منظرها مثيرًا للشفقة بثياب البيت الرثة وشعرها المنكوش الذى لم تعن به منذ عقود .. وبدا واضحًا أنها مأساة إغريقية توشك أن تحدث ..

صحت فى (سليم) :

ـ « فلنبتعد ! »

لكن الكلام على هين .. إنها زوجته .. حبيبته منذ أيام الدراسة برغم أننى أشك نوعًا فى صدق هذه الحقيقة .. أو على الأقل أشك فى أنه يحتفظ لها بالحب ذاته وهو يراها بهذا المنظر ..

سمعنا صوت الكلاب .. وقبل أن نفهم ما يحدث كان كلبان عملاقان يثبان فى الهواء وسط ضوء اللهب المتراقص ..

صرخ الناس وتراجعوا .. الغريب أننا فى الشارع لكن الإضاءة توحى بأننا فى كهف .. لا تفهم ما يحدث بالضبط .. الكثير جدًا من الظلال ..

فقط أدركت أن هناك كلبين يجثمان عليها وأنها تقاوم وتصرخ ..

ثم ظهر رجال الشرطة بنظاراتهم التى تشعرك بأنك ترى نملة عملاقة .. لن يقتلوها .. لابد من الاستجواب أولاً .. معها قداحة فمن أين جاءت بها ؟ لن نؤذيك يا سيدتى .. فقط قولى لنا من زوجك ؟ كيف نعتقل الغريبين المتشابهين اللذين ينزلان ضيفين

عندك ؟ إنهما الغريبان اللذان أضاءا القداحة فى مدخل الفندق .. أليس كذلك ؟ من أين جاءا ؟ ما هذه النار القوية ؟

كنت أجرُ (سليم) مبتعدين عن هذا المشهد .. لقد تحول إلى طفل مذعور كبير لا يعرف ما يجب عمله .. اعتقال زوجته يعنى اعتقال ابنه .. هذا رجل فقد أسرته فى بضع ثوان والسبب قداحة ..

كان يردد بلا انقطاع :

ـ « اتركانى .. يجب أن أموت معها .. يجب أن أموت معها .. يجب أن أموت معها .. يجب أن أموت معها .. يجب أن أموت معها .. يجب أن أموت معها .. »

قلت له وأنا أجرُه فى الضوء الخافت القادم من المحرقة :

ـ « اسمع .. لم يعد لك مكان فى هذا العالم .. يجب أن تثق بى .. سوف ترحل معنا .. »

ـ « إلى أين ؟ »

ـ « لا أعرف .. لكن إلى مكان ليس هنا .. »

واعتصرت ساعد (سلمى) الأيسر وقلت لها :

ـ « يجب أن تحاولى .. استعملى هذا الضوء فلا يمكن الانتظار إلى أن تشرق الشمس .. »

وباليد الأخرى اعتصرت كتف الزوج المنكوب ..

قالت وهى تقرب عينها من الجهاز :

ـ « سأحاول .. (143ـ ج ـ 1) .. ما رأيك ؟ »

قلت فى غيظ بسبب غباء السؤال :

ـ « يبدو محببًا .. إن العوالم التى تبدأ بـ 143 تكون مبهجة .. هذه قاعدة .. »

ضغطت الأزرار وهى تلهث ..

سوف يندهش (سليم) من الرحلة القادمة ، لكن فى الوقت متسعًا لفهم كل شىء ..

ـ « هيا ! »

ـ « لكنى فعلت ذلك ! »

وعادت تضغط على زر الإدخال مرارًا .. لا شىء ..

قلبت الجهاز وتفحصت البطاريات .. إنها فى مكانها ..

قال (سليم) :

ـ « هل تستعملان هذه الأشياء ؟ ألا تعرفان أنه لم يعد لها قيمة فى عالمنا ؟ ككل شىء تلاشت الطاقة منه ، فرغت كل البطاريات خلال أيام .. أعتقد أن جهازكما هذا قضى فترة كافية ليفرغ كأى جهاز آخر ! »

* * *

6 ـ الضونيون ..

فى الظلام مد (فيتوريو) يده يتحسس الشكل المصنوع من الصلصال ..

هناك مرتفع هنا ومنخفض هناك .. هناك فجوة .. هناك ممر ضيق بين جبلين ..ثم توقفت أنامله عند مجموعة من البروزات التى صنعت من أعواد ثقاب متلاصقة ، وقال :

ـ « من أين جئت بالثقاب ؟ »

ـ « أحب الاحتفاظ بهذه الطرائف .. »

عاد يواصل التحسس ثم تساءل :

ـ « إلام يرمز هذا ؟ »

ـ « أعتقد أنه يرمز للصواريخ عابرة القارات .. »

توقفت يده عند برج مرتفع .. وعاد يسأل :

ـ « هذا .. ما هو ؟ »

مدت (باولا) يدها حيث أشار ، وراحت تتحسس ثم قالت :

ـ « لا أعرف .. لكنه شديد الأهمية .. هناك حراسة مكثفة من حوله .. »

قال (فيتوريو) وهو يمضغ بعض التبغ كعادته :

ـ « على كل حال أنت أجدت استعمال عينيك يا (باولا) .. نحن الآن نفهم كل مخارج ومداخل هذه القلعة .. إن الضونيين سوف يسعدون بهذه الأنباء .. »

قالت فى رضا :

ـ « الخبر الأهم هو موضوع فرقة العمال التى سيتم نقلها إلى هناك .. إنهم بحاجة إلى أعداد أكبر من العمال .. وهؤلاء العمال سيكونون من عدة بلدان .. »

ـ « وهذا يعنى أننا سنكون هناك .. »

لم تكن (باولا) قد رأت (فيتوريو) من قبل .. فهى لا تملك تلك النظارة السحرية ، لكنها تعتقد أنه وسيم فارع القامة .. لا تعرف بالضبط معنى كلمة (وسيم) وتعرف معنى (فارع) بالتقريب .. لكن كل شىء قد تغير فى هذا العالم على كل حال ، بحيث صارت للأذن قدرة هائلة على التمييز وتكوين

الشخصيات .. (الأذن تعشق قبل العين أحيانًا) .. هذه الشطرة من الشعر العربى لم تسمعها لكنها تعبر عما فى ذهنها يقينًا ..

بالطبع (الأذن تخدع قبل العين أحيانًا) أمر وارد .. هناك مكفوفون كثيرون تعلقوا بصوت فتاة ، بينما هى لا تتمتع بأى جمال .. لكن العبرة هى عين الروح وما تراه ..

لقد كان (فيتوريو) يعرف كل شىء ويفعل كل شىء .. ورث هذا كله عن أبيه الذى كان معارضًا قويًا وقتله الفاشيون .. وعندما ساد الظلام ظل (فيتوريو) مقاتلاً عنيدًا .. لا تعرف كل ما يعرفه لكنها تعرف أنه همزة الوصل بين الضونيين فى أكثر من مكان .. برغم أن العالم صار شاسعًا مترامى الأطراف كما كان منذ ألف عام ، فإن هؤلاء القوم وجدوا أساليب لتبادل المعلومات .. هناك الطريق البرى وهناك أجهزة اللاسلكى الواهية التى تعمل ببطاريات بيولوجية ، وهناك الحمام الزاجل .. سلالات الحمام الجديدة التى ولدت عمياء ، لكنها تعلمت الاعتماد على حواسها .. فى عالم كهذا تجد المخلوقات طرقًا غريبة .. النحل كان يضل طريقه لأنه لا يستطيع رسم زاوية مع قرص الشمس كما كان يفعل للعودة إلى خليته .. ظهرت سلالات جديدة

تعتمد على حواسها .. وعلى كل حال صار جنى العسل عملاً محفوفًا بالمخاطرة فعلاً ..

لم يكونا وحدهما .. فمعهما شاب يدعى (ستافرو) وشاب يدعى (ريكاردو) وفتاة تدعى (سيمونيتا) .. الشابان يضعان النظارات الليلية طبعًا ، فمن الوارد أن تكتشف أنك تتآمر فى وجود عشرة رجال شرطة من حولك ..

لم يكن (فيتوريو) يثق بالإيطاليين كثيرًا برغم أنه منهم .. كان يعتقد أنهم لا يتمتعون بالصلابة ولا يمكن الاعتماد عليهم .. (موسولينى) العجوز خذل (هتلر) مرارًا حتى آمن هذا الأخير أن الإيطاليين شعب خال من إرادة الحرب أصلاً .. يبدو أن الرومان لم يتركوا شيئًا من دمهم فى عروق الأحفاد .. لو تمت هذه العملية فلابد من الاستعانة بشعب قوى الشكيمة .. وكان يثق بالألمان من بين شعوب أوروبا ..

قال (ستافرو) :

– « كل شىء يوحى لنا بقرب اللحظة .. هذه أكمل صورة مجسمة لقلعة الجبل .. الأخبار القادمة من الخارج تقول إن التوءمين ظهرا .. المتشابهان اللذان قيل إنهما سيحرران عالمنا .. »

قال (فيتوريو) فى غيظ :

– « دعنا ننس هذا الهراء .. كل شعب من الشعوب ينتظر قدوم مخلّص ما .. كانت هناك قصص مصورة تدعى (ماتريكس) كنت أقرؤها فى صباى ، وكانت تتحدث عن عالم ينتظر قدوم (المختار) ليحرره من الآلات الحاكمة .. أرى أننا ندخل ذات الدائرة الآن .. »

قال (ستافرو) بصوته الرفيع المميز :

– « يقال إنهما ظهرا فى مصر .. لا أرى ما يمنع من الاتصال بهما .. »

قالت الفتاة :

– « حتى القومندان يؤمن بهذه القصة ، وقد وصل لها بطريقة منفصلة عنا .. هذا يعطيها بعض المصداقية .. »

قال (فيتوريو) :

– « لا أعرف كيف يمكن إدخال اثنين من مصر فى قصة كهذه .. لكن لا مانع من محاولة الاتصال بهما .. هل تعرفون السبب ؟ السبب سيكولوجى قبل كل شىء .. إن كنت تؤمن بهذه الخرافة فلتعرف أن المنقذين معنا نحن بالذات .. »

ثم هتف وهو يعيد تحسُّس المجسم :

ـ « هذا الجزء المبهم الذى يحرسونه بعناية .. أريد معرفة ما فيه .. كل نظام محكم له كعب أخيل (Achilles' heel) .. نقطة ضعف مخفية تؤدى لانهيار كل شىء .. فهل هذا هو (كعب أخيلهم)؟ »

قالت (باولا) :

ـ « وكيف نعرف ؟ »

ـ « سنعرف عندما نعرف ! والآن ليتحسس كل منكم هذا النموذج بعناية .. ليحفظه عن ظهر قلب .. بعد هذا سوف ندمره لأن وجوده معنا كاف لإعدامنا بلا محاكمة .. »

وغمغم كأنما هو يذكر نفسه :

ـ « اثنان فى مصر .. هم م م .. هذا مثير .. »

* * *

7ـ سنكون هنـاك ..

قال لى (سليم) :

ـ « أنت لم تكن صريحًا معى منذ البداية .. ولو سألت لأجبتك .. لا يمكن لهذا الجهاز أن يعمل إلا لو وصلت إلى قلعة القومندان .. »

قلت ضاحكًا فى هستيريا :

ـ « جميل .. جميل .. ولماذا لا أجربه على كوكب (أورانوس) ؟ »

ـ « لا أعرف ما هو كوكب (أورانوس).. »

كلما نسيت نفسى تذكرت أننى على كوكب آخر .. وأن هذا الأخ كائن فضائى غريب ! هم لا يعرفون كوكب (أورانوس) فلا مانع أن يكون اسمه عندهم (عباس) أو شيئًا من هذا القبيل ..

قلت له :

ـ « أردت القول إن هذا شىء مستحيل .. معنى هذا أننا فعلاً غير قادرين على مغادرة عالمكم .. »

قال فى ضيق :

ـ « لا أصدق حتى اللحظة موضوع العوالم الموازية هذا .. لكنى أعرف شيئًا واحدًا هو أن كل مصادر الطاقة لا تعمل إلا فى قلعة القومندان لأنها فوق مستوى الظلام .. هناك الشمس والنار والكهرباء وطاقة الوضع وطاقة الحركة والطاقة الذرية .. كل شىء .. كل طاقة سمعت عنها فى كتب الفيزياء تعمل بكامل قواها .. »

قالت له (سلمى) فى لهفة :

ـ « وكيف نصل هناك ؟ »

صحت بها :

ـ « هل جننت ؟ »

قالت ببرود :

ـ « بالعكس .. الجنون هو أن نبقى هنا فى الظلام بلا أمل .. من الأفضل أن نموت ونحن نحاول .. »

ثم سألته :

ـ « هل تعتقد أن بوسعك مساعدتنا ؟ »

قال بعد فترة صمت قدرت أنه يفكر أثناءها :

ـ « هذا يحتاج إلى الكثير من الاتصالات .. لكنى سأرى ما يجب عمله .. »

الحقيقة أنه كان فى مأزق هو الآخر .. لقد صار عاجزًا عن العودة إلى داره .. الأجمل هو أننا جميعًا اضطررنا لاستبدال ثيابنا بثياب متسخة قذرة لأن الكلاب بالقطع صارت تحفظ رائحتنا .. كنا نعيش فى الشارع أو نزحف إلى أن نبلغ بيت أحد الضوئيين ممن يعرفهم لنمضى بعض الوقت هناك .. كل هذا من دون النظارات طبعًا .. لقد ترك نظارته فى بيته .. لا أخبار عن ابنه ولا زوجته ..

الحق إنها كانت حياة مرهقة ..

* * *

قال الأستاذ (شوقى) بصوت عال جهورى يميز مدرسى اللغة العربية :

ـ « ودار لها بالرقمتين كأنها

مراجيع وشم فى نواشر معصم.. »

ثم قال سائلاً :

ـ « هل تعرفون معنى (مراجيع وشم) ؟ »

ارتفع صوت رقيق لطالب يدعى (عمرو) .. هذا صوت (عمرو) ولا شك فى هذا .. يقول :

ـ « الشاعر يشبّه بقايا الدار بأثر الوشم فى معصم المرأة .. »

ارتفع صوت طالب آخر :

ـ « كيف يبدو يا أستاذ ؟ هل هو شبيه بالعروق ؟ »

كانت هذه هى المشكلة .. هؤلاء لم يروا وشمًا أصلاً .. من السُخف أن تكلمهم عن شىء لم يروه .. أن تكلمهم عن بقايا الديار ومشية الظباء والعيون اللواتى فى طرفها حور وهم لم

يروا النور قط .. لقد اتفق معهم على أن القدامى كانوا يتمتعون بشىء فريد هو أنهم يبصرون .. لم يكونوا يعتمدون على السمع لكن كانت عندهم حاسة فريدة من نوعها .. لم يفهم التلاميذ الأمر واعتبروه شبيهًا بمن يقول لك إن القبائل القديمة كانت تستعمل التخاطر الفكرى .. مجرد انبهار مع مسحة حسد ثم ينسون الأمر تمامًا ..

لكن مشكلته كانت هينة نوعًا .. التعامل مع اللغة سمعيًا أمر سهل ، والدليل أن مكفوفين كثيرين نبغوا فى اللغة .. المشكلة الحقيقية كانت تواجه مدرسى الفيزياء والكيمياء والأحياء حيث البصر جزء لا يتجزأ من المعرفة ..

هكذا كانت العلوم تنقرض بسرعة جهنمية على هذا الكوكب منذ ساد الظلام ..

سمع الهديل فمشى نحو النافذة وهو يواصل الشرح :

ـ « فلما عرفت الدار قلت لربعها

ألا عم صباحًا أيها الربع واسلم .. »

قال أحد الصبية :

ـ « هناك حمامة على النافذة يا سيدى .. أعرف هذا الصوت .. »

قال فى ضيق :

ـ « حتى لو كانت طائرة فلا دخل لك بهذا .. »

ومد يده يتحسس حتى استطاع أن يتلمس ريش الحمامة .. استسلمت لأصابعه فى حنان فمد يده يبحث عن الطوق حول ساقها وانتزع اللفافة .. كأنما شعرت الحمامة بامتنان لتحررها من هذا الثقل فردت جناحيها وحلقت أو هذا ما شعر به ..

كانت اللفافة من الورق المقوّى وقد امتلأت بالثقوب .. ثقوب تم رسمها بالإبرة وبرداءة .. فى هذا العالم لم يعد هناك علم اسمه الخط ، وإنما أنت تقيّم رموز (برايل) .. هل هى منسقة أم مبعثرة ..

تحسس الثقوب .. كانت الرسالة قصيرة لكنها واضحة :

ـ « التوءمان يجب أن يتواجدا فى المطار فى الثامنة صباح الأربعاء .. طائرة تحمل العمالة إلى القلعة.. »

فرغ من تحسس الرسالة ثم مزقها إلى قطع صغيرة وهو يواصل كلامه :

ـ « سئمت تكاليف الحياة ومن يعش

ثمانين عامًا لا أبالك يسأم .. »

* * *

كلم الأستاذ (شوقى) الدكتور (ميخائيل) فى صيدليته .. كلم الدكتور (ميخائيل) المهندس (حلمى) فى مكتب الإنشاءات الخاص به .. كلم المهندس (حلمى) الحاج (عبد السلام أبو يحيى) فى داره .. كلم هذا الأخير (شريف) فى المطعم .. كلم (شريف) (سليم) وهو يتناول الغداء عندهم ..

كلمنا (سليم) عندما اختلى بنا ..

هكذا اكتملت الدائرة ..

لقد عرفنا ما يجب أن نقوم به ..

غدا هو بداية الحل أو نهايته .

* * *

8- المتسلّلون ..

الظلام دامس فى الطائرة .. هذا يزيد من شعورك بالكابوس الجاثم على صدرك .. أن تكون فى الظلام على الأرض فهذا محتمل .. أن ترى الضوء وأنت فى السماء فهذا معقول .. لكن أن تجد نفسك فى الظلام على متن طائرة فهذا هو الكابوس بعينه .. لا ينقصك شىء كى تشعر بأنك ميت وأن هذا هو القبر ..

العمال الجالسون فى الظلام من جنسيات مختلفة .. منهم الصينى واليابانى والألمانى والمصرى والتنزانى .. لهذا كان من حسن الحظ أن تسمع واحدًا يتكلم بذات لغتك ..

الرحلة طويلة طويلة استغرقت عدة أيام لأن الطائرة هبطت فى أكثر من مطار .. لا يعلم إلا الله كيف تعرف الطائرة طريقها فى الظلام ، لكن أجهزة القياس تؤدى كل شىء كما هو واضح .. وقود الطائرة هو الوقود الوحيد الذى أفلت من معضلة تلاشى الطاقة تلك .. إن أبحاث ذلك العالم الفقيد على الوقود البيولوجى هى مفتاح كل شىء يتحرك فى هذا العالم ..

كنت في شبه غيبوبة .. أنا جالس حيث أنا منذ أيام .. فقط يسمحون لنا بساعة من التريض بين مطار وآخر ..

أعرف أن (سلمى) في الطائرة الأخرى ضمن فريق الراقصات .. شيء مهين لكنه الحل الوحيد ، فلا يمكن لأحد أن يصل إلى قلعة القومندان سوى عامل أو راقصة .. إن هؤلاء السادة يعانون لذا هم بحاجة إلى ترفيه ..

في الظلام أسمع صوت (فيتوريو) يتكلم مع جاره الإيطالي الذي أعتقد أنه (ستافرو) .. لا أعرف الكثير لكن أعتقد أن (فيتوريو) هو مدير العملية كلها .. وهو يتكلم بتلك الطريقة التي يتكلم بها الرجال الأشداء في أفلام السينما .. سوف يكون رجال القومندان حمقى لو اعتقدوا أنه مجرد عامل بسيط ..

كان الأمر واضحًا بالنسبة لي .. سوف يقبضون علينا فور وصولنا ويرموننا بالرصاص .. فقط هناك احتمال ضئيل جدًا أن يكونوا أغبياء .. عندها يجب أن أجد (سلمى) وأمسك بيدها بينما تقوم هي بتشغيل الجهاز ..

بالنسبة لهؤلاء الثوار كان السيناريو مختلفًا .. هم يأملون أن أقودهم بذكائي وشجاعتي إلى طريقة تدمير عالم القومندان هذا ..

سوف تكون مفاجأة سارة لهم !

* * *

لقد استغرق الأمر عدة أيام حتى وجدونا وحتى قال لنا (سليم) إن الضونيين يريدون أن نكون معهم في القلعة ..

كان هذا هو الحل الوحيد وقد جاء من سماء صافية ..

بالطبع أصابني الهلع ونشطت قرحتي .. لست أنا أنسب شخص للتسلل للقلاع السرية لو كنت تفهم هذا ، لكن (سلمى) العزيزة كانت مصرة على رأيها :

ـ « لا يوجد حل آخر .. إما موت بطيء أو موت سريع لكن معه احتمال نجاة .. »

وهكذا جاء ذلك اليوم الذي وقفنا فيه في المطار بثياب أخذناها من (سليم) .. هي تلبس كراقصة .. لا أعني أنها تلبس ثياب الرقص طبعًا ، لكنها تضع الكثير من المساحيق مع معطف جلدي

طويل وطابع عام من البهرجـة .. لا أحد سيرى المساحيق هنا لكنها ذاهبة إلى حيث يرون ..

بالنسبة لى ارتديت ثياب العمال البسيطة المتسخة ..

لا أعـرف أيـن كانـت الطـائرات ، لكنى فى لحظة بعينها لم أعد مع (سلمى) .. لقد لحقت بطائرتها ، أما أنا فرحت أزحف عبـر ممـرات مظلمـة ليتلقفنى رجال أمن يتحسسون الأوراق التـى أحملهـا والتـى طبعـت بطريقـة (برايل) .. أوراق مزيفـة طبعًا أخذتهـا مـن (سـليم) .. لابد أن هنـاك علامـة ما تميز التزييف .. علامة قاتلة وسوف يجدونها لكن هذا لم يحدث ولله الحمـد ..

أخيرًا وجدت نفسى داخـل الطـائرة أتحسس المكـان بحثًا عن مقعد خال ؛ لأنه كـان هنـاك الكثير من الجالسين .. سمعت كلامًا بالإنجليزيـة والفرنسـية والسـواحلية .. وعرفـت أن هـؤلاء موجودون منذ أيام هنا ..

وفى النهاية استطعت الوصول إلى مقعد ..

وسرعان ما غبت فى نعاس عميق ..

يمكن القول إن رحلتـى كـانت نعاسًا طويـلاً مستمرًا .. تـارة أصحو من النوم وتارة أغيب فيه ، ومن حين لآخر يضـع أحدهم شطيرة لحم فى يدى فأقضمها ..

توقفنا مـرارًا ليضـاف لنـا آخـرون .. آخر لغـة سـمعتها هـى الصينية .. إننا نقترب من الهيملايا إذن ..

* * *

دوّى الصوت يقول بالإنجليزية :

ـ « نحن نرتفع فـوق مستوى الغيـوم .. سوف نبدأ الملاحـة اليدوية معتمدين على البصر.. »

وفجأة حدثت المعجزة ..

بـدأ الظـلام يقـل .. فجأة تدرك أنـه ليس ظلامًا متجانسًا .. تفهـم السـر .. لقـد كـان هـذا الظـلام المسطح عبارة عن سحب كثيفة سود .. والآن قد بـدأت السحب تتباعد وتفترق .. ومـن بينهـا تظهـر السمـاء .. السـماء الزرقـاء التى خلقهـا الله !

النور يتسلل خافتًا لداخل الطائرة ..

تصاعدت صيحات الانبهار والاستحسان .. وردد الجميع صلوات بأكثر من لغة تنتمى لأكثر من دين .. بكى أحدهم غير مصدق .. أعترف أن دمعة تسللت لعينى بدورى .. وهمست : سبحان الله !

فجأة صار النور هو كل شيء بالخارج ونسينا أننا كنا فى ظلام دامس ..

دار الطيار قليلاً فى الجو ، ثم قال فى مكبر الصوت :

ـ « أرجو أن تنظروا من الجهة اليسرى .. »

تدافعنا لنرى ما يريد أن نراه ..

كانت هناك قمتا جبلين متقاربتان .. وخيل لنا أننا نرى شيئاً بين الجبلين ..

عندما اقتربنا أكثر رأينا أن هذا رجل .. رجل يتدلى بين قمتى الجبلين مربوطاً بجنازير قوية إلى القمتين وقد تدلى فى وضع النسر الفارد جناحيه Spreadeagled والغريب أنه كانت هناك شعلة نار قريبة منه معلقة على سارية عالية .. واضح أنها هنا لمنعه من التجمد ..

هل ما زال حيًا ؟ لا أعرف ..

قال الطيار بصوت بارد :

ـ « الاسم (دانييل أوهارا) .. إيرلندى .. حاول سرقة بعض النار من قلعة القومندان لينزل بها إلى البشر فى عالم الظلمات ، لكن الحراس قبضوا عليه .. وها هو ذا يتلقى عقابه العادل .. إن الطيور الجارحة والعواصف سوف تمزقه إربًا .. »

كان هذا درسًا قاسيا لمن يريد أن يعتبر .. إن المشهد الشنيع لا يفارق ذهنك بسهولة ..

رجل حاول أن يسرق النار فكان عقابه أن علق بين جبلين ليموت ..

يبدو الأمر مألوفًا ..

ثم تذكرت .. (برومثيوس Prometheus) العملاق فى الأساطير الإغريقية .. أراد أن يسرق النار من الأوليمب ليمنح أسرارها لبنى البشر .. النتيجة هى أن (زيوس Zeus) عاقبه

بهذا الشكل .. وفى كل يوم يأتى الرخ ليأكل كبده وفى الليل ينمو له كبد جديد .. رمزًا للعذاب الأزلى ..

النار .. المعرفة .. (بروميثيوس) أنقذه (هرقل) فمن لهذا البائس بهرقل آخر ؟

وارتجفت .. هذا القومندان يتصرف مثل (زيوس) وكأن قلعته هى (الأوليمب) .. إنه يعتبر نفسه إلهًا بالفعل .. وقد اختار هذه الميتة للمتمرد لأنها راقت له .. وجدها شاعرية ذات مذاق أدبى ساحر ..

فليرحمنا الله فنحن ذاهبون إلى قلعة مجنون .. والأسوأ أنه مجنون قوى جدًا ..

قطع علىّ أفكارى صوت الطيار يقول :

ـ « اربطوا الأحزمة .. »

وبدأت الطائرة تنحدر .. إنها تحاول الوصول إلى الفجوة بين جبلين مغطيين بالثلج .. ثم هى تتجه إلى ممر .. ممر طائرات عجيب تم شقُّه بين سفحى الجبلين ..

متى صنع هذا الرجل هذا كله ؟ وأية إمكانيات لديه ؟

على كل حال لا يمكنك أن تحكم العالم بتكاليف أقل من هذا ..

عجلات الطائرة تلمس الممر ..

وتندفع الطائرة فى آخر خطوات رحلتها الرهيبة ..

* * *

9 ـ المتحـف ..

لم تكن هنالك شكوك ..

منذ اللحظة الأولى التى ترجلنا فيها أدركنا أن ذلك البرج الذى نراه من بعيد محاطًا بالحراسة هو مركز الاهتمام والخطـورة فى هذا العالم المضىء ..

* * *

توقفت يده عند برج مرتفع .. وعاد يسأل :

ـ « هذا .. ما هو ؟ »

مدت (باولا) يدها حيث أشار ، وراحت تتحسس ثم قالت :

ـ « لا أعرف .. لكنه شديد الأهمية .. هناك حراسة مكثفة من حوله .. »

* * *

لم نتبادل كلمـات .. فقط لـم نصدق أننـا نمشـى فـى النـور .. نمشى وسط ممر طويل يعج بالحراس على الجانبين .. ثم نمشـى

وسـط حدائـق غنـاء تذكرك باللوحـات التـى كـان يرسمها فنـانو (إخوة ما قبل رافائيل) .. كل شىء هناك .. النافورة والطـاوس والحسناوات اللاتـى يرقـدن علـى العشب يطـالعن كتبًا أو يركبن الأرجوحـة ويبعـثرن الأزهـار .. لا ينقـص المشـهد إلا توقيـع (جينسبورو) أو (كونستابل) فى الركن ..

إنهـن بنـات سادتنا طبعًا .. ولـدن فـى الشـمس والهـواء وتمتعـن بالحيـاة النباتيـة .. عرفـن القـراءة وربمـا التلفزيـون أيضًا ..

تذكرت حياة الآخرين فى الظلام يتحسسون الطرقـات وسط الرائحـة العفنـة .. تذكـرت شطائر اللحم الكريـه الـذى لا تعـرف ما هو ..

لقد حدث الاستقطاب بشكل قاس جدًا ، وكما حلم بـه كتـاب الخيال العلمى مرارًا .. سادة مترفون وعبيد معذبـون .. الفـارق هنا هـو أن العبيـد هـم العـالم كلـه .. والفـارق أن هذا لـم يحدث نتيجة تطور داروينى طبيعى ، بل هـو لعبـة قاسية أحدثهـا نـيزك هـاو ..

ربما كان ما حدث للديناصورات أفضل ..

كان الطقس باردًا بحق .. لكن السبب هو إننا على قمم الهيملايا .. ليس السبب أن الشمس لا وجود لها ..

هذا يفسر لك المصابيح المتناثرة فى الحدائق .. إنها تخلق جوًا صناعيًا من الدفء .. لن تبدو هاته الحسناوات قادمات من عالم (جينسبورو) لو أن كل واحدة منهن ترتدى (بول أوفر) بدلاً من تلك الغلالة الرقيقة ..

صاح أحد العمال الأسبان القادمين معنا بعبارات غزل .. أعتقد أنها عبارات غزل .. لأن مرأى الحسناوات أفقده صوابه .. من المبهر أن ترى حسناء لكن الأكثر إبهارًا أن (ترى) أصلاً ..

للأسف سمعه أحد الحراس وعلى الفور انهال عليه حارسان ضربًا بكعب البندقية مع الكثير من الركلات ..

هكذا واصل الموكب مسيرته فى صمت وأدب .

* * *

هل ترى هذه البناية العملاقة ؟ يمكن بسهولة أن تدرك أنها المتحف هنا .. من النوافذ الخفيضة المغطاة بالزجاج ترى خليطًا عجيبًا من لوحات عصر النهضة والآثار الآشورية والفرعونية .. هناك أجزاء تذكرك بمتحف اللوفر ذاته .. هناك رأس كبير (لأمنحتب الثالث) فى المدخل وسط الأشجار ..

هناك قوم من جنسيات مختلفة يبدو عليهم الرقى يحملون كاميرات التصوير .. منذ متى لم أر كاميرا تصوير ؟ إنهم ينظرون لنا فى مزيج من الدهشة والاستمتاع ..

من الواضح أن هناك أرستقراطية كاملة قد تكونت من رجال القومندان وأسرهم وأصدقائهم هنا .. هؤلاء القوم الذين تربوا فوق الظلام وعرفوا معنى النور .. بالطبع استجلبوا لأنفسهم كل ما يجعل حياتهم هنا ممتعة .. حتى آثار الأمم الأخرى وكنوزها .. فى هذا شىء من المنطق على كل حال .. إذ ماذا يفعل بهذه الكنوز قوم لا يبصرون ؟

كنا نمر بهم .. كأننا جيش من العبيد لا نجرؤ على الالتفات ولا تبادل التعليقات ..

وقلت لنفسى : هذا لن يدوم للأبد .. طبيعة الأمور أن هذا لن يدوم للأبد .. منذ خلق الله الأرض والماء لا يبقى أبدًا فى مكان مرتفع وإنما يهبط لأسفل .. لقد بُحّ صوت المعلمة فى المدرسة الإعدادية وهى تشرح لنا معنى (الأوانى المستطرقة) ..

هناك ثراء ووفرة ونور والأهم أن هذه الأشياء مسلوبة من العالم كله .. لابد من أن يهبط هذا كله إلى حيث الفقر والشح والظلام ..

ولكن كيف ؟

يبدو أن هذه الأمور على عاتقنا .. وكما يعتقد هؤلاء الإخوة فإنها على عاتقى أنا .. وهو دور لا أستطيع القيام به ولا أرغب .. دعك من أن مشهد (بروميثيوس) المعلق بين جبلين لا يفارق مخيلتى ..

فقط يجب أن أجد (سلمى) .. يجب أن أمسك بيدها ونضغط على أزرار الجهاز ..

أعتقد أننا سوف نلتقى الليلة بشكل ما ..

* * *

10 ـ الخدعــة ..

لم أكن مولعًا بالعمل اليدوى .. كنت أعتبر نفسى رجل فكر ، وهو رأى لم يقره الناشر قط .. كان يرى أننى أكتب كسباك أو حفار طرق .

هذه المرة كنت أمارس عملى فى التوصيلات الكهربية بيد أديب .. لا أملك أية براعة فى هذه الأمور خاصة أننا نعمل فى أنفاق شديدة التعقيد .. ولولا التعليمات الصادرة بالإنجليزية من (أسطى) هندى يعرف ما يجب عمله لحدثت كارثة .

أعتقد أننى تركت انطباعًا عامًا بأننى لا أفقه شيئًا فى مهنة الكهرباء .. هذا ما كان ينقصنى ..

كانت الساعة تقترب من العاشرة مساء بعد يوم شاق طويل .. وكنت موشكًا على فقدان الوعى ، عندما قال لى الأسطى الهندى :

ـ « هذا الكابل يقود لقاعة الاحتفالات .. أريد أن تتبعه وتتأكد من أنه معزول بالكامل .. هل تستطيع عمل هذا على الأقل ؟ »

قاعة الاحتفالات ؟ بالطبع ..

مشيت وراء الكابل وأنا أسلط شعاع الكشاف عليه .. رأيته يتلوى خارجًا من النفق صاعدًا لأعلى فالتفتُ إلى رئيسى .. أشار لى أن استمر ..

ارتقيت درجات تم تدعيمها بالمعدن إلى ساحة مظلمة فى الخارج .. أطفأت الكشاف ..

ووقفت آخذ شهيقًا عميقًا .. للمرة الأولى أنا وحدى .. لاتوجد حراسة من أى نوع هنا .. يصعب علىّ أن أتصور أننى فوق قمم الهيملايا لكنها الحقيقة .. فقط هى هيملايا تم جعلها صالحة للحياة بآلاف من أجهزة التدفئة المتناثرة فى كل مكان ..

من بعيد أرى تلك الأشباح الشامخة مرتسمة على خط الأفق ..

إنها الأبراج ..

نعم أبراج .. فقد عرفت فى هذا اليوم أن هناك أكثر من برج .. وكلها تحظى بذات الحراسة المكثفة .. لكنى بعيد عنها الآن ..

فجأة بدأت الأرض تهتز تحت قدمى ..

ونظرت إلى الأفق فرأيت أن قمم الأبراج تهتز بلا انقطاع .. ومنها يتصاعد ذلك المزيج الكثيف الأسود الذى لا أعرف ما هو ..

كان يتصاعد إلى السماء من أكثر من قمة .. كأنها فوهات مصانع تضخُ الدخان الأسود بلا انقطاع لعنان السماء .. للحظة تعالى الدخان ثم بدأ يهبط لأسفل ..

وفى ذعر فطنت إلى أننى فى ظلام دامس لا أرى قدمى ذاتها .. لا أرى يدى ..

لكن هذه اللحظات القاسية لم تدم طويلاً لأن الدخان بدأ يتلاشى وينقشع ..

ما معنى هذا الذى رأيته ؟ هناك رسالة ما لكنى لم أتلقها بعد ..

لكن الأبراج كانت مستمرة فى الضخ بلا توقف ..

وسمعت تلك الخطوات من خلفى فأجفلت ..

* * *

نظرت خلفى فرأيت (فيتوريو) قادمًا يتعثر وسط الصخور ..

هكذا عدت أنظر أمامى ..

قال لى :

ـ « لقد تأخرت فأرسلنى الريس لأسأل عنك .. »

ثم نظر إلى الأبراج فى الأفق وهمس :

ـ « ما هذا ؟ »

قلت له فى شرود :

ـ « أعتقد أننى بدأت أفهم .. »

كان الظلام يزداد كثافة من حولنا فى هذه اللحظات ..

أردفت :

ـ « منذ جئت إلى عالمكم وأنا أتساءل عن سبب عدم انقشاع هذه السحابة التى سببها النيزك .. إن سيناريو K ـ T يقضى بأن تزول الحياة عن الأرض سريعًا .. أما لو بقيت فإن هناك أملاً فى أن يعود نور الشمس عندما تنقشع الغيوم .. لماذا ظل الظلام عشرين عامًا هنا ؟ لأن هذا القومندان ورجاله مستمرون فى تخليق السحابة السوداء .. هذه الأبراج تقوم بهذا الغرض .. لقد جعلهم الظلام سادة يسيطرون على الناس سيطرة مطلقة .. معنى عودة النور أن تزول سلطتهم ويستغنى عنهم الآخرون .. »

كانت عيناه تتسعان رعبًا وهو لا يصدق .. أن يستغل البعض الكارثة فهذا شىء ، وأن يخلق أحدهم كارثة فهذا شىء آخر ..

قلت مواصلاً الكلام :

ـ « من الواضح أن هذا الغبار له كثافة معينة تسمح له بأن يهبط لأسفل .. تحت مستوى القومندان .. ويظل معلقًا فى

الهواء .. هكذا يبقى الناس فى أرض الظلام كما هم .. خاضعين للسادة الذين يعيشون هنا .. هل رأيت الترف الذى يعيشون فيه ؟ لن يتركوا أحدًا يسلبهم هذا .. »

قال (فيتوريو) فى شىء من الانبهار :

ـ « أنت عبقرى .. »

قلت لاهثًا من البرد :

ـ « لست عبقريًا .. فقط أنا أول من رأى هذا المشهد .. »

ثم نظرت إلى الكابل الغليظ المتلوى على الأرض وغمغمت :

ـ « هذا الكابل يقود لقاعة الاحتفالات .. أريد أن أكون هناك الآن .. »

* * *

11ـ الحفل ..

يتبادل الرجل مع صديقه عبارات المزاح وهما يمشيان فى الحديقة .. لا أعرف بأية لغة يتكلمان ، لكنهما لم يطيلا الكلام على كل حال لأن (فيتوريو) وثب من خلف الشجرة على أولهما فجندله أرضًا .. وقبل أن يصرخ الثانى كنت قد استجمعت ما فى جسدى من توتر وغضب وهويت بمقبض الكشاف على وجه الثانى ..

سقطا كحجرين لحسن الحظ .. وهكذا استطعنا أن نستبدل بثياب العمال ثيابهما .. كان من اخترته بدينًا لذا لم تكن ثيابه مريحة على الإطلاق وقد احتجت أن أمشى فاتحًا ساقى كى لا ينزلق البنطال ..

مغامرة يائسة لأن رئيس العمال سوف يكتشف غيابنا ، ولسوف يتذكر أننى مشيت وراء الكابل .. لو مشى وراء الكابل بدوره لوجد الضيفين المجردين من ثيابهما بسهولة ..

لكنى آمل فى أن أفعل ما أريد قبل أن يفتضح أمرى ..

أخفيناهما خلف شجرتين ، ثم مشينا متظاهرين بأعتى علامات السرور .. كأننا من أبناء هذا المكان المخضرمين .. دعوت الله ألا يكونوا يحفظون شكل بعضهم لكن (فيتوريو) قدر أن العدد كبير فلا يمكن ملاحظة اثنين ..

كنا الآن في القاعة الرئيسة التي تقترب مساحتها من مساحة ميدان التحرير ، فقط لو أن ميدان التحرير كان مضاء بالثريا العملاقة وامتلأ بالقوم فاخرى المظهر في ثياب السهرة ، وفرشت أرضه بسجاد سميك طرى يذكرك بغابات الإستبس .. الخدم يركضون هنا وهناك ، وهناك مسحة من إضاءة خافتة تسمح بألا نبدو مريبين ..

همست له :

ـ « كل هذا الضوء والصخب بينما نحن نتحسس طريقنا في الظلمات .. لم يكن هناك عدل لكننا لم نتصور هذا .. »

قال :

ـ « لقد كانت خطوة التسلل ضرورية .. »

كنت أبحث بعيني عن (سلمى) .. لو وجدت (سلمى) لانتهت متاعبي .. سوف ألحق بها ونضغط الأزرار ونفر .. دع (فيتوريو) والضونيين يتدبرون أمرهم فهم قاب قوسين أو أدنى من ذلك ..

سألته ونحن نمشي وسط الزحام :

ـ « لماذا لم تخططوا لاغتيال القومندان ؟ أنا لا أعرف أين هو لكن المشروع مغر .. »

ابتسم كأنما يسمع طفلاً يتكلم . كان هناك ساق يمر بقربه فمد يده ينتزع كوب عصير من على الصينية ، وقال :

ـ « ألم تفهم بعد ؟ »

ـ « نعم . لم أفهم .. »

قال وهو يفرغ الكوب في جوفه :

ـ « لا يوجد قومندان ! »

كدت أصرخ من الانفعال ، ثم استجمعت أعصابي وسألته :

ـ « ماذا تعني ؟ »

ـ « القومندان هو كل هؤلاء .. تلك الزمرة الحاكمة .. الجنرالات والعلماء القادمون من روسيا والصين وبعض الدول الأوروبية .. لقد قرروا أن يصنعوا لأنفسهم مجتمعًا مسيطرًا خاصًا بهم .. ولما كانت الشعوب ميالة إلى الفكرة المجردة ، ولدت صورة القومندان الذى كان راهبًا آتيًا من التبت .. فى الحقيقة لا وجود له .. لا وجود له على الإطلاق .. القومندان فكرة تربط هؤلاء لا أكثر .. »

ـ « والكلام عن النبوءة ، وكل ما يقال عن إجادته السحر .. إلخ .. »

ـ « كل هذا هراء يؤمن به الجميع حتى أعوانى من الضونيين .. ما لدى من معلومات يؤكد أن القرارات تصدر جماعية لكنهم يضعون عليها اسم (القومندان) .. »

فجأة دوى صوت الموسيقا ..

نظرت إلى المسرح العملاق الذى تقطعه أشعة الليزر من حين لآخر .. الدخان يتصاعد كأنه حفل زفاف ابنة خالتى .. مجموعة من الراقصات الغربيات يؤدين نوعًا من الباليه الإيقاعى وسط استحسان الجماهير ..

ـ « هناك على اليمين .. هذه (باولا) فتاتنا.. »

(باولا) راقصة تجيد عملها ..

فقط هناك على اليسار راقصة بلهاء بطيئة الحركة لا تجيد أداء دورها .. تتخبط وتتعثر وتوشك على أن توقع الصف بأكمله ..

كان من السهل أن أعرف (سلمى) من مسافة كهذه ..

رحت أشق الزحام نحوها .. سوف أدنو من المسرح وسوف ترانى .. سوف تتلاقى أناملنا .. ثم أضغط الأرقام السحرية .. أى شيء .. أية تركيبة .. المهم أن نرحل ..

أشق الزحام .. ثمة رجل عسكرى يجرى اتصالاً .. أمرُ بجواره فأسمعه يتكلم بالإنجليزية .. أسمع جملة مما يقول :

ـ « الراقصة الثالثة على اليسار .. أريد معلومات كاملة عنها .. هذه لا تعرف شيئًا عن الرقص ! »

هكذا أركض بسرعة نحوها .. أقف تحت المسرح وألوح بيدى ..

إنها لا ترانى .. البلهاء .. إنها تنظر لقدميها خائفة من أن تتعثر ..

ارفعى عينيك قليلاً .. انظرى لى .. لو كنت جوارك الآن لحطمت رأسك ..

فى اللحظة التالية سمعت ضوضاء من خلفى ..

أرى ضابطين يشقان الصفوف نحونا .. أحدهما يشير لها .. والآخر يشير لى !

وسمعت من يقول بالإنجليزية :

- « وهذا .. ليس منا على الإطلاق .. ألم تفهموا بعد يا حمقى ؟ إنهما متشابهان ! إنهما توءمان !! »

* * *

12 ـ الرحيل ..

دوى الصراخ من كل مكان وسمعت من يصيح :

- « الكمبيوتر قال إن نسبة التماثل بين ملامحهما 97٪ ! أنتم تعرفون أنه يدرس ملامح كل من يدخل هنا من ذكور وإناث ! »

وقال آخر :

- « كيف يصلان لهذا المدى ولم يلحظ أحد إلا الآن ؟ سوف تطير رءوس كثيرة مهملة ! »

حديث غاضب بالروسية .. بالألمانية .. بالصينية .. بالفرنسية ..

لم أنظر خلفى ..

وثبت إلى المسرح فى اللحظة التى سمعت فيها طلقة رصاص تمر جوار رأسى .. ثم صاح أحدهم :

- « لا تقتلوهما ! يجب أن يظلا حيين للاستجواب ! لا مفر لهما من القاعة .. »

وكنت الآن على المسرح أحاول النهوض بينما (سلمى) تركض نحوى صارخة :

ـ « ماذا فعلت يا أحمق ؟ »

الفتيات يصرخن والمسرح يخلو بسرعة جنونية ..

تشبثت بساقها وباليد الأخرى رحت أضغط على أزرار الجهاز .. (221 ـ ب ـ 1) ..

ـ « امنعوه ! إنه يحاول تفجير عبوة ناسفة بالريموت ! »

وطلقة أخرى تخطئ هدفها .. هذه آخر طلقة تفعل ذلك .. لن يظلوا حمقى للأبد ..

هيا .. مفتاح الإدخال ..

وسرعان ما تلاشت قاعة الاحتفال من حولنا ..

* * *

عندما تم التجسدُ من جديد وجدت أننا نقف فى ..

فى قاعة واسعة تذكرك بتلك القاعات الصناعية فى أفلام (جيمس بوند) .. هناك ما يشبه المولد العملاق .. هناك سقف عال جدًا فيه طاقة نرى منها السماء .. هناك سلم معدنى يتلوّى قادمًا من أسفل .. هناك غرف جانبية عليها علامات إنذار التلوث النووى وخطر الموت .. هناك مصعد عملى جدًا يناسب المناجم والمصانع ..

الإضاءة خافتة زرقاء معتمة جدًا ..

هناك باب كتب عليه بالإنجليزية (التحكم ـ ممنوع الدخول لغير الفنيين من رتبة ألفا) وقد كررت العبارة بلغات أخرى هى الروسية والصينية ـ قد تكون اليابانية ـ والألمانية ..

أين نحن ؟

كانت هناك شاشات متناثرة .. شاشات تومض وتنطفئ بلا توقف ..

كدت أتكلم لكن (سلمى) ضغطت على ساعدى وأشارت لشاشة من الشاشات ..

رأيت على الشاشة وجهى ووجه (سلمى) كما بدونا عند النزول من الطائرة على الأرجح .. صور ثابتة تم التقاطها لنا ونحن لا نعلم ..

ودوى صوت المعلق يقول :

ـ « هاربان .. يجب البحث عنهما فى القلعة كلها.. »

ودوت صفارة إنذار متقطعة مقلقة من الطراز الذى يجعل أعصابك تتآكل ..

قلت لها :

ـ « ما معنى هذا ؟ نحن لم نرحل .. ما زال الموقف كما هو وهم يبحثون عنا .. »

كانت صامتة تتأمل المفاتيح ، وقد قطبت جبينها ثم قالت :

ـ « هل تلف الجهاز ؟ لا .. »

ثم تذكرت شيئاً فأضافت :

ـ « أنت من اختار الأرقام .. بالتأكيد أنت اخترت رقمًا استعملناه من قبل .. »

ـ « لا أذكر .. لكن لنفترض أن هذا حدث .. »

ـ « د. (محمود بكر) مخترع ناقل الجزيئات حذرنى من الضغط على نفس الرقم مرتين ، لأنه لا يؤدى للانتقال إلى عالم آخر .. فقط هو ينقلك إلى موضع آخر من ذات العالم .. أعتقد أن هذا ما فعلته أنت .. لم نغادر الكوكب لكننا انتقلنا بضعة أمتار فيه .. غرفة تحكم و .... »

ثم شهقت فى انبهار :

ـ « هل تعرف ما أفكر فيه ؟ نحن فى داخل أحد الأبراج الكبرى .. »

قلت لها :

ـ « بالمناسبة .. لا أعتقد أنك تعرفين ما أعرفه .. هذه الأبراج هى .. »

ـ « هى التى تبقى سكان الأرض فى ظلام .. لقد استنتجت هذا .. كنا فى الخارج عندما رأيناها تعمل .. »

ـ « إذن دعينا نرحل بالله عليك .. أعيدى اختيار أرقام أخرى .. »

قالت فى شرود :

ـ « نعم .. سنفعل ذلك .. لكن أرى أننا فى وضع يتيح لنا مساعدة هؤلاء القوم .. ما كنا لنصل داخل أحد هذه الأبراج بسهولة .. نحن الآن بالداخل .. ما رأيك فى عملية تخريب ؟ »

ـ « هل هى كافية ؟ »

ـ « لا .. لكن قسطاً من نور الشمس قد يتسرب لأهل الأرض .. ومعه قسط من الحقيقة .. »

وقبل أن أعترض مدت يدها تفتح ذلك الباب الذى كتب عليه (التحكم ـ ممنوع الدخول لغير الفنيين من رتبة ألفا) .

كانت الغرفة خالية تماماً فيما عدا بعض الشاشات المضيئة وعدد من الروافع والأزرار .. إما أنهم يبحثون عنا وإما أن التحكم آلي تماماً هنا ..

ـ « وإما أنهم واثقون من أن أحداً لن يدخل هذه المنشأة .. »

قالت لى :

ـ « تقول إنك أخرق .. هيا برهن لنا عن ذلك ! »

هكذا انطلقنا نعبث فى الروافع .. لم نبق رافعة فى وضعها السابق .. لم نترك زراً إلا ضغطناه .. لم نجد محولاً كهربياً إلا حطمناه .. انتزعنا كل سلك وقابس .. الشاشات هشمناها .. بدأ الظلام يسود المكان ..

جهاز إنذار يدوى من مكان ما ..

فجأة انغلق باب الحجرة علينا .. إنه يعمل بشكل أوتوماتيكى إذا حدث تخريب ، ومن مكان ما دوى صوت آلى رتيب :

ـ « فشل عام فى النظام .. توقف لآليات الإظلام .. فشل عام فى النظام .. توقف لآليات الإظلام .. »

كان هناك من يصيح فى الخارج .. صوت طلقات .. كلمات عصبية تقال ..

لقد عادوا .. لا أعرف ما أحدثناه من ضرر لكنه كبير يا (سلمى) .. إنهم قد فقدوا أعصابهم ..

قالت وهى تمسك بيدى :

ـ « الظلام يعم .. من الحكمة أن نرحل الآن .. »

وضغطت الأزرار وهى تمسك بيدى ..

فى اللحظة التى بدا أن هناك من يقتحم الباب ..

لكننا كنا قد ذبنا فى عالم اللانهائيات ..

* * *

كنت جالسًا إلى مكتبى أدون المغامرة الأخيرة عندما جاءت (سلمى) وفى يدها ورقة والجهاز ناقل الجزيئات . وانتظرت حتى فرغت من السطر الذى أكتبه ، ثم قالت :

ـ « كنت أشك فى شىء ما .. لهذا قمت بتفريغ شريحة ذاكرة الجهاز التى تحتفظ بالأرقام التى طلبناها .. »

ثم راحت تراجع الأرقام وهى تشطب على الورقة بقلم رصاص :

ـ « هذه هى أول عملية انتقال فررنا بها من قسم الشرطة .. هنا العملية التى فررنا بها من أرض بلا فراعنة .. وهذه كنا فى أرض المغول .. ثم فررنا .. هنا فرارنا من أرض العظايا .. أما هذا الرقم فيمثل فرارنا من الديناصورات .. فرارنا من الحفل فى أرض الظلام .. ثم فرارنا من البرج .. »

ثم وضعت القلم بين شفتيها ، وقالت :

ـ « لم يتكرر أى رقم ! »

صحت فى دهشة :

ـ « يا سلام ! ولماذا لم نغادر كوكب الظلام عندما ضغطت أنا أزرار الجهاز ؟ »

قالت فى خبث :

ـ « غادرناه فعلاً ! الحقيقة أننا كنا فى كوكب آخر يقوم الطغاة فيه بحكم باقى البشر من قلعة فوق جبال الهيملايا ! »

ـ « عم تتحدثين ؟ »

— « هذه هى الحقيقة ! الكوكب الذى دمرنا أجهزة الإظلام فيه هو كوكب آخر يمر بذات الظروف ! وقد تجسدنا على بعد أمتار بدلاً من أن نتجسد فى الحقل ! »

صحت فى ذهول وأنا أضرب المنضدة بيدى :

— « هذا يعنى أننا لم نقدم أية خدمة لـ (فيتوريو) و(سليم) والآخرين .. »

قالت باسمة :

— « على الأقل هم يعرفون أين يوجهون ضربتهم عندما يقررون الضرب .. عندما تزول الغمامة ويصل نور الشمس إلى الأرض سيثور الناس ضد من استلبوهم حقهم فى النور .. »

ثم أضافت فى خبث :

— « ولا تنس أننا قدمنا هذه الخدمة لكوكب آخر فى مجرة أخرى ! »

رحت أنظر لها فى حيرة .. إن الصداع يغزو رأسى بحق ..

— « لو كنت تعتقد أن الكون معقد وعسير الفهم ، فعليك أن تبتلع بعض أقراص الصداع لأن الأمور سوف تزداد سوءًا .. »

قالها عالم الفلك الأمريكى (مايكل تيرنر) ، ويبدو أنه لا يعرف كم هو محق ودقيق ..

لا نعرف متى سنجرؤ على ضغط الأزرار من جديد .. حتى هذه اللحظة استعملنا الجهاز كوسيلة فرار من وضع خطير ، وبما أننا فى حالة استقرار حالية ، وبما أنه لا يمكن طلب ذات الرقم مرتين ، فإننى أعتقد أننا لن نخاطر بترك هذا العالم المستقر .. وأعتقد أن فترة استقرارنا ستطول ..

دعك من أن السفر بين العوالم الموازية قد يكون خطرًا بالنسبة لسيدة حامل !

* * *

خاتمة

من جديد يعود د. (رفعت إسماعيل) ليودعكم ..

أرجو أن تكون القصة قد راقت لكم ..

عالم جديد من العوالم الكابوسية التى لم يكف الأخ (سالم) و(سلمى) عن ارتيادها ، وفى كل مرة أشعر أن عالمنا رائع الجمال ..

كما قال فى نهاية رسالته : لا نعرف متى سنجرؤ على ضغط الأزرار من جديد .. حتى هذه اللحظة استعملنا الجهاز كوسيلة فرار من وضع خطير ، وبما أننا فى حالة استقرار حالية ، وبما أنه لا يمكن طلب ذات الرقم مرتين ، فإننى أعتقد أننا لن نخاطر بترك هذا العالم المستقر .. وأعتقد أن فترة استقرارنا ستطول ..

هذا صحيح .. لم يجربا الجهاز للسياحة قط وإنما للهرب ، أى إنهما استعملا مزايا الجهاز السلبية لا الإيجابية .. ألا تكون هنا بدلاً من أن تكون هناك ..

الخبر الجديد الطريف هو أن مدام (سلمى) تنتظر حدثًا سعيدًا .. بالفعل أعتقد أن هذه المغامرة عنيفة بالنسبة لحامل .. ولربما يومًا ما تكون المغامرات ثلاثية ..

عالم بلا شمس .. عالم من الظلام .. هذا عالم لا يناسبنى حتمًا ..

صبرًا .. لقد انقطع التيار الكهربى فى هذه اللحظة بالذات .. لكننا نحتفظ بالأمل ..

لربما تعود الكهرباء .. ربما تشرق الشمس مرة أخرى .. ربما يكون هناك غد ..

* * *

فى القصة القادمة أحكى لكم عن خبرتى مع نادى الغيلان .. إن الأندية تتعدد .. ومجالات اهتماماتها تختلف .. لكن ما هى اهتمامات نادٍ للغيلان بالضبط ؟! يمكنك أن تتخيل !

ولكن هذه قصة أخرى .

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

تمت بحمد الله

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والإثارة

روايات مصرية للجيب



د. أحمد خالد توفيق

أسطورة أرض الظلام

أفكر أننا في ممر الجرذان ..
حيث فقد الموتى عظامهم ..
أية ضوضاء هذه ؟
إنها الريح تحت الباب ..
« وما هذه الضوضاء الآن ؟ .. ماذا تفعل الريح ؟ »
لا شيء .. نعم لا شيء ..
« ألا ترى شيئًا ؟ .. ألا ترى شيئًا ؟
ألا تذكر شيئًا ؟ »

(ت. س. إليوت)

العدد القادم

أسطورة نادي الغيلان





الثمن في مصر 400
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم